رواية

فقاعة

إن حياتنا مليئة بالصراعات التي لم نستطع يوماً أن نجدالسبيل الى حلّها وفصلها .. فهي تؤرقنا حدّ التخبّط .. وتدنو بنا نحو الهذيان شيئاً فشيئاً .. وما أن نجد ضالتنا في أمرٍ ما حتى نعود لنبحر في نفس المكان . كأننا عتدنا على أن نضل الطريق. أو قل أننا أردنا ذلك منذ البداية! فما أن تقرأ هذه الرواية حتى تتبين من ذلك بنفسك .

حسام (بطل الرواية) لم يتردد يوماً في الدفاع عن نزواته. بل كان يسارع اليها بشغف كبير . ولم يشكّ في تعقلّه قط! وستراه في أوج ضعفه يحاول كتابة نهاية لنفسه بكل قوته! وحسبك أنك في غمرة أحداث هذه الرواية ستشعر في أرق لم تجد له مثيل إذا ما أمعنت النظر في نفسك قبل الكتاب .

9 789957 632243

دار وردا الأردنية للنشر والتوزيع
P.O. Box 927651 Amman 11190 Jordan
Tel. +962 6 5606 263 - Fax +962 6 5606 263
E-mail : wardbookjo@yahoo.com
E-mail : info@wardbookjo@.com
www.wardbookjo.com

فقاعة

- **فقاعة / رواية**
- **زهير أحمد البلاونة/ من الأردن**
- الطبعة الأولى : 2018
- **حقوق النشر والتوزيع محفوظة:**

دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع
P.O. Box 927651 Amman 11190 Jordan
Tel. +962 6 5606 263 - Fax +962 6 5606 263
E-mail : wardbookjo@yahoo.com
E-mail : info@wardbookjo@.com
www.wardbookjo.com

- تصميم الغلاف : **خالد جلال**
- تدقيق لغوي : **دعاء أبو شعلة**

- رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: 2017/12/6189
- ISBN 978 - 9957 - 632 - 24- 3 (ردمك)

جميع الحقوق محفوظة للناشر . لا يُسمَح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبَق من الناشر.
All rights reserved. No part of this book may be reproduced. stored in a retrieval system. or transmitted in any form or by any means without prior written permission of the publisher.

زهير أحمد البلاونة

فقاعة

رواية

إهـــــــداء ...

إلى أقطاب الحكاية ...
لأولئك الغائبين ...
لعشق الهوامش ...
لشوق تولّد من عبق الحنين ...
لعالم الظلال والفقاعة ...

فوضی

نبتة جافة لن يحييها هذا المطر المتساقط، ولم توضع على حافة الشرفة عرضة للمطر إلا لأنه يعلم أن هذا المطر لن يجعلها تحيا، لأنه يحبها هكذا، هو من جعلها تموت ليس تكاسلاً أو استهتارًا بها ولكنه أرادها ميتة، ربما لأنه يحب فيها حزنها أو جبروتها وقوتها، إذ أنها شامخة حتى بعد موتها، لقد انتظرها أيامًا وشهورًا وهو يراها تذبل رويدًا رويدًا حتى استسلمت للموت.

أظن بيته يشبههم أيضًا، هذا البيت الفسيح الذي كان ينبض بالحياة ذات يوم، يقف شاحبًا خاليًا من العواطف بارد الجدران، أشجار الحديقة التي لم يبقَ منها سوى ما استعصى على الموت الفتك به، لتواصل نثر أوراقها المتساقطة في باحة البيت، كل يوم عند عودته للبيت يقول لنفسه سأقطع هذه الأشجار.

أيقظه ضجيج السيارات، نظر إلى الساعة فقام مسرعًا لا يعلم من أين يبدأ، لبس سريعًا وخرج من باب الشقة مهرولاً الجيد بالموضوع أنه لا يأخذ وقتًا لتجهيز نفسه للخروج، انتظر طويلاً حتى جاءت حافلة فركبها، وبعد جهد وعناء وصل إلى عمله وكان الاجتماع قد انتهى، وأخبروه أن المدير يريد أن يراه حال وصوله، دخل على المدير – وكانت زوجة المدير بمكتبه، ربما من حسن حظه – فقال له ارجع بعد قليل، المدير لا يحب أن يرى تلك النظرة على وجه زوجته عندما ترى حسام، لأنه يعلم أنها تستلطفه كثيراً بل وتتمناه من داخلها، وكذلك حسام فزوجة المدير جذابة جدًا وكم تمنى لو أنهما اجتمعا بظروف أخرى لتسنى له أن يدق باب قلبها

ولكنه لا يريد المزيد من المتاعب.

خرج من مكتب المدير وتوجه إلى مكتبه ينتظر ما سيحل به من عقاب، جاءت خلود ومعها كوبان من القهوة.

حسام: هذا ما أحتاجه الآن، قهوة الصباح، كم أنتِ رائعة.

خلود: جئت متأخرًا، بالتأكيد لم تتناول قهوتك إلى الآن.

حسام: يبدو هذا اليوم تعيسًا من بدايته.

خلود لا تزال تعيش على ذكرى قبلة زرعها حسام على شفتيها العطشى منذ شهور، رغم أنه لا يحب العلاقات داخل العمل إلا أنه لم يستطع أن يكبح جماح نفسه، فقد كان ثملاً غير مدرك لما فعل عندما قبلها وتركها في تلك الليلة تتخبط بين أنفاسها.

أخذ كوب القهوة وأشعل سيجارة، ورمى بظهره على الكرسي، وبدأت خلود سلسلة من النصائح لتلفت انتباهه إلى مدى خوفها عليه، قطع هذه السلسلة دخول سوسن - زوجة المدير- المكتب وأشارت إليه بإصبعها وقالت له: لا تتأخر عن العمل مرة أخرى، بالكاد استطعت إقناعه أن يسامحك، ابتسم ابتسامة شكر وراحت هي تنظر إليه عندما جاء صوت ينادي سوسن، هيا بنا ماذا تفعلين؟ غادرت وهو ينظر إلى هذا الجمال الذي لن يطاله إن أراد أن يستمر بعمله.

لم يتصور يوماً أن يكون هذا مكان عمله، أو أن يكون هذا مجاله، ولكن هذا أفضل الموجود، فوظيفة بشركة تأمين لم تكن ضمن مخططاته ولكنه مجبر على ذلك، ومع ذلك فهو مبدع في هذا المجال،

فلغة الحوار والإقناع أسهل عمل يقوم به.

خرج من الشركة وكان المطر غزيرًا وقد امتلأت الطرقات بمياه الأمطار، آثر أن يكمل الطريق إلى البيت سيرًا، فالمسافة ليست بعيدة والمسير تحت المطر من هواياته.

يقال إن المطر يغسل القلوب ويشفي جروح الزمن أو بالأحرى هو مخدر مؤقت، حسام يهوى هذه الحالة ، فهي ترسم على وجهه ابتسامة استهزاءٍ بالقدر، وبلحظة أخرى تخنقه عبرات ويحييه أمل باللا شيء، أظنها تؤجج حقده الدفين.

تقتادنا الحياة شهورًا وسنين دون أن نعلم الوجهة، تبعدنا عن مكنوناتنا، نكاد لا نكون نحن، أحيانا يعيش الجسد باغتراب في هذه الحياة وأحياناً – وهذه الأقسى – تعيش الروح هذا الاغتراب.

دخل إلى البيت وكان مبتلاً تماماً، أراد أن يحضّر الطعام قبل وصول أصدقائه، فقد اعتادوا أن يلتقوا يوم الخميس وكان قد دعاهم على العشاء الليلة الماضية، نظر إلى الهاتف وقال في نفسه سأطلب الطعام من المطعم.

وصل شادي متسائلاً عن سبب تأخر نضال؟! لقد حدثني قبل قليل وقال إنه سيصل باكراً.

أظنه على وصول.

جلس على الأريكة المقابلة، نظر شادي إلى الطاولة المجاورة، فوجد دفتر حسام الذي يكتب فيه خواطره التي طالما أحب قراءتها، أخذ الدفتر وبدأ يقرأ، بدا فيها كمية التشاؤم التي يمر بها حسام.

ذهل شادي عندما قرأ شيئاً من هذه الخواطر، لم يعتد أن يرى حسام بهذا التشاؤم، لم يسأله عن سر ذلك لأنه يعلم أن حسام أقوى من أن يستسلم.

حسام – هل تذكر ذلك الوقت الذي كنا فيه نؤمن بأحلامنا، لقد كان للحلم طعم، لقد ابتعدنا كثيراً عن مرافئنا.

شادي – دع عنك يا صديقي، لقد تعبت من الأحلام الخيالية، نحن أبناء الواقع.

حسام – يراودني أحيانا شيءٌ من التفاؤل حيال ذلك.

لطالما كان كالخيل الجامح الذي يأبى أن يتروض أو أن ينصاع إلى أهواء الأقدار هذا ما كان يظنه حسام، ولكن وبعين الواقع نحن لا نملك شيئا في حربنا ضد أقدارنا المحتومة.

شادي يكاد يكون أكثر واقعية، ربما كان سيحمل أفكاراً مماثلة لولا أن الأقدار قد روضته مبكرا، فقد تحول من مراهق إلى أب لعائلة تكبره سنًا، كل هذا يحدث برمية نرد من يد القدر.

جميعنا يحلم والقليل يحدد هدفاً لنفسه، والصفوة من يحققون ذلك، ليس ضرباً من الحظ ولا اختلافاً بالظروف – كما يبرر الكثير – ولكنها الجدية والتصميم، هو الإيمان بالوصول.

دقائق من الصمت حتى وصل نضال، صرخ بهم قائلاً: أين الطعام؟ أظن أننا مدعوون على العشاء، جلس وهو بكامل نشاطه على غير عادته فسألوه ما بك؟ يبدو أن هناك خبراً ساراً عندك، هيا ماذا عندك؟

غداً تصل ولاء من الخارج، عادت من أجلي، كان يقول هذه الكلمات وهو يتأجج فرحاً

شادي – هذه أخبار سارة

حسام – كم أسعدني ذلك ستزداد عائلتنا فردًا جديدًا.

نضال يرى شادي مثله الأعلى فقد شهِد بنفسه كيف استطاع أن يقود قارب حبه لبر الأمان.

صمت حسام قليلاً فسأله: ما هو تعريفك للحب؟

شادي – هو أن تسأل نفسك لو أنك جردت من تحب من كل ميزاته، فهل هناك سبب يجعلك تتمسك به، فإن لم تجد سبباً ومع ذلك ما تزال تتمسك به لشيء خفي فهذا هو الحب.

نضال – وهو يكاد أن يذوب على الأريكة، شعور تحس به مرة واحدة ويتملك وجدانك وأفكارك ويصبح شغلك الشاغل ولا تستطيع الافتراق عنه، هو نبضة لا تملك إيقافها أو إيقاظها.

وجاء دور حسام ليرد على ما قالا لأن لسؤاله هدفًا أن يوصلهم لفكرة أنه ليس هناك من تعريف أو نسق محدد لهذا الشعور.

برأيي نحن من نهول هذا الإحساس فيتحول التعويد لحب وشعور النقص لشيء ما نجده بشخص آخر حبًا، وقس على ذلك باقي الدوافع، نحن من نصنع الحب بأنفسنا.

شادي – ارجع إلى نفسك تجد أنك مخطئ تماماً، يوما ما سيقطر الحب من دمك، كما أنك مزجت الفلسفة بالطعام، أين الطعام؟.

نضال لم يكن يبالي بكل هذا الحديث لأنه كان يطير فرحا بوصول ولاء التي طالما أحبها ولكن الظروف فرقت بينهما، فقد ترك أهله في دبي وعاد إلى الأردن وهو في الجامعة لأجلها، حينها أراد أبوه أن يزوجه ابنة عمه لأسباب مادية بحتة ولكن دون تصريح الأب بذلك، كان يصر على ذلك الزواج على أنه شيء من العادات والتقاليد وبعض من العقلانية في الاختيار ولكنه لم ينصع لهم ، وعاد إلى الأردن ليعيش برفقة جدته، أما هي فقد وجدت أخيرا عملا في الأردن مع أن فرصتها المهنية بدبي كانت أفضل إلا أنها اختارت الحب، ليس لها أقارب بالأردن، ستمكث برفقة صديقتها.

مع أنغام فيروز وإيقاع الكؤوس أكملوا ما تبقى من مساء هذا اليوم البارد. الليل هو قبلة النفوس التائهة وملجأ للأرواح الهاربة، هو عالم يشبه السواد الذي يحويه.

عاد شادي – وهو بالكاد يستطيع الوقوف – إلى بيته، زوجته لم تستطع النوم وكانت بانتظار قدومه كعادته ثملا مترنحا، لم يكن باستطاعتها عمل شيء إلا أن تدعو له بالخير والهداية.

ليلى تحبه بدون زيف أو تملق، مشاعرها نحوه لم يحورها أو يعريها الزمن ولا الظروف. تحب كل ما فيه دون كسور أو جذور، كان حبهما على قدر من النقاء أنه لا يحتمل إلا أن يتزوجا فيكون الكمال.

إلا أن هموم الحياة أرهقتهما على صغر سنهما، شادي لم يستطع أن يكمل دراسته بعد وفاة والده، وكان لا بد أن يعمل بدلا عن والده ليعيل أسرته، مع ذلك لا تزال أحلامه معلقة في مخيلته ولكن

قسوة الزمن جمدتها وأوقفت جريان دمائها.

هذا اليوم لم يستيقظ حسام على أصوات السيارات ولا على صوت المنبه بل على أنغام جرس الباب المزعجة، نهض متكاسلا آملا أن يملّ من يدق الباب ويذهب، فتح الباب وابتسم لزائرته، اطلت غيابك عني شهرًا كاملاً، أمهليني دقيقة لأغتسل وحضري القهوة.

الصباح هو مهد المشاعر ونهرها الذي يمدها بالروح، فإن كانت النظرة بذرة العشق فالصباح غذاؤها وحاويها.

لم تتفوه بكلمة، حضرت القهوة، وجلست بجانبه، نظرت إليه، وانهمرت دموعها بالبكاء وارتمت على صدره ضمها إليه متلهفا: ما بك؟ لم يدر ما يفعل ظل صامتا وكأنه أحب هذه الدموع أو أنه لا يريد أن يضيق عليها أكثر، بعد عدة دقائق هدأت مايا قليلا أرادت أن تتحدث إلا أنها عادت للبكاء ثانية، هنا في هذه اللحظة جاء صوته الدافئ لا يهمك شيء وأنت معي، اهدئي حبيبتي ومسح دموعها بيده زاد بكائها ثم هدأت وأخذت سيجارة وأشعلتها فأشعل سيجارته معها، نظرت إليه بنظرة فيها سيل من الحب وجبل من الكره، فيها كثير من الشوق والأسى، رشفت من فنجانها، وأخذت سيجارته المشتعلة بأفكاره المتناقضة، سألها عن سبب بكائها عند دخولها، ضحكت وكأنها تريد أن تتراجع عن تلك الدموع التي ذرفتها لامبالية بسؤاله، غيرت الموضوع بطريقة واضحة بقولها أنها نوبة شوق لا أكثر، راح يضحك ودخل المطبخ ليحضر الطعام.

بينما أخذت مايا تتذكر هذا العمر كيف مضى وهي تنتظر أن يغير حسام من طريقة تفكيره فربما كان لها نصيب من هذا التغيير، فهي كانت تعلم أن علاقتها مع حسام ليست أكثر من نزوة طويلة الأمد، ولكن هذه النزوة تخطت الحدود بحيث أنها لا تستطيع أن تخرج من حياة حسام أو أن يخرج هو من داخلها.

بعد أن أكلا معًا خرجت هي إلى منزل أختها على أن يلتقيا مساءً مع باقي الأصدقاء، وخاصة لوجود مناسبة سعيدة عند نضال بقدوم ولاء، حيث قررا أن يتناولوا العشاء معًا.

دقائق كانت طويلة على نضال وهو ينتظر وصول ولاء، لحظة لا يمكن وصفها، رؤيتهما لبعضهما كان لقاءً بالأحضان لا يكفي ليطفئا هذا الشوق والبعد والحرمان، اصطحبها إلى بيت صديقتها التي ستقيم معها.

دخلت إلى البيت، أما هو لم يتعدّ عتبة الباب وتركها لتستريح وأخبرها بموعدهم مساءً.

غريب هو الحب بعد أن أبعدهما سنين ومسافات، ها هو يجمعهما ثانيةً، ترى هل هو حب أم تمرد على الواقع – مهما يكن – إنه أكبر تحدٍ وأظن انهما استطاعا اجتيازه بجدارة – إلى الآن –.

اجتمعوا كما كان مقررًا، جاء شادي وزوجته ليلى، وحسام بصحبة مايا، وبالتأكيد نضال وولاء، حسام كعادته كان محور الجلسة بضحكته التي لا تتوقف، غريب مزاج يضحك حتى عندما يتوجب عليه البكاء، لم تكن يوما تصرفاته متوقعة، كان يتحدث إلى الجميع

حتى المجاورين له على طاولة أخرى، كان بحديثه يكسر الحواجز، وبأفكاره يأسر العقول، كانت هناك فتاة على الطاولة المجاورة لم تستطع إلا أن تلبي نظرته لها بنظرة منها، حتى أنها لم تستطع أن تزيح ناظرها عنه، مايا التي بدأت تستشيط غضباً ولكنها حاولت ألّا تظهر ذلك، إلى أن أشارت الفتاة بيديها إليه ليلحق بها، فوقف قائلاً بأنه يريد أن يذهب إلى الحمام، هنا لم تستطع مايا الاحتمال أحست أنه جرح أنوثتها بهذا التصرف، فقالت له : لا تذهب، ادعها مكاني إلى الطاولة، أنا يجب أن أنصرف، خرجت مسرعة فلحق بها حسام إلا أنها صدته بقسوة وغادرت، عاد حسام وهو يبتسم قائلاً : لم أقصد ذلك، لقد كان الأمر عفويًا !

هو يحب الخيانة ولا يرى بنفسه حرجًا من ذلك، لا يخفي الأمر عن نفسه لا يعطيه وصفًا آخر، يقول لنفسه نعم أنا كذلك، يجد لذة بها، والحقيقة أن الجميع يجد هذه اللذة ولكنهم لا يفصحون لأنفسهم ، ولكن الخيانة لعنة تبْقى وتحرق ما تَبّقى.

ولاء لم يعجبها ما حدث إلا أنها تفهمت شخصية حسام من الجلسة الأولى، ليلى كانت تعرف حسام جيداً لكونه صديق زوجها وكانت معه بنفس الجامعة فلم تستغرب ما حدث، ومع كل ما حدث أكملوا بقية السهرة، وكان نضال شبه مفصول عن الواقع برؤيته ولاء، تلك الفتاة التي كانت السبب لما حدث بين حسام ومايا لم تكن راضية أيضاً إذ أن حسام لم يلحق بها فنظرة الإعجاب تحولت إلى حقد، فكان حسام الخاسر الوحيد ولكنه لم يكترث لما حدث.

ولاء لم تكف عن الحديث لصديقتها عن حسام وتصرفاته لم تصمت حتى جاءها هاتف من نضال الذي لم يتوقف عن مغازلتها حتى نامت وهي ممسكةً الهاتف، نضال يعمل في مكتب هندسي، يحب عمله كثيرًا ويحب ولاء أكثر، منذ عودته إلى الأردن وهو ينتظر اللحظة التي يراها فيها، وينتظر اليوم الذي سيجمعهما للأبد.

نضال قصير القامة ويحمل صلابة الفرسان وعناد البحر في وجهه الأشقر، له إطلالة قل ما تجدها بين الكثيرين، طباعه صارمة أحيانًا يكون عصبيًا لأسباب تافهة، وتارةً أخرى تجده حكيمًا رزينًا بالمواقف الشديدة، لعله أخذ بعض الصفات من جدته التي يعيش معها، فهو أفضل حالاً من حسام على الأقل يجد من يحنو عليه ويعوضه شيئا عن غياب والديه.

والدا حسام مطلقان وكل تزوج وأكمل حياته وبقي حسام وحيدًا، أحب هذا الوضع فكانت له حياته المستقلة، ليس من النوع الذي يبحث عن شماعة ليعلق عليها أخطاءه، نعم لقد عاش يتيمًا مع أن والديه على قيد الحياة لكنه لا يكترث كثيرًا.

جميعنا نحب العيش بظل ما، الابن بظل الأب، أو الزوجة بظل زوجها والعكس جائز ولكنه لم يجد هذا الظل فلم يكن له خيار العيش بالظل، وأرى الحقيقة أنه يعيش بظل نفسه، نفسه التي لم يعشها.

الأيام متشابهة يندر أن تتغير رتابة هذه المصفوفة التي نضعها لأنفسنا، لم تظهر النفس البشرية على هذا، إنها تحب التقلب والتغيير،

نفوسنا غوغائية إلى حد ما، ورغم ذلك فنحن من نزج بأنفسنا بهذه الأقفاص المطبقة ونحاول قدر المستطاع أن نكون بخانة الاستقرار، ذلك لأننا نخاف المجازفة وهنا يظهر عدل الأقدار، أن المجازفين وحدهم من يتذوقون طعم الحياة وسرها ولكي تحصل على هذا وجب عليك أن تدفع الضريبة المقررة من سلطة القدر وغالباً ما تكون باهظة.

وصل إلى عمله ولكن على الوقت المحدد كغير عادته، لكن هذا اليوم كان يحمل الجديد، نظر إلى الحائط فوجد دعوة لحضور حفل خطوبة، كانت خلود صاحبة الدعوة، ضحك وراح إلى مكتبها مباركاً، كانت تظن أنه ربما يكون هذا الحدث قد أثر به ولو قليلاً، وقف مقابلاً لها وقال «مبروك، أنا آخر من يعلم، كنت أظن نفسي مقرباً منك:

لا، ولكن جاء الأمر سريعاً سوف تحضر أليس كذلك.

طبعا، لن أفوت هذه المناسبة السعيدة.

خلود سوف تتزوج زواجاً تقليديًا، ليس تقليدياً إلى حد كبير ولكنه كذلك فبضعة أسابيع من المعرفة المرتبة من قبل الأقارب جمعتها مع هذا الشاب ليمهدا لنفسيهما الزواج بعد أن صنعا شيئاً يشبه الحب إلى حد معين، ذلك ما يسمى خداع النفس ولكن الروح لا تخدع، كانت قد استسلمت للواقع لأنها متأكدة أن حسام لن يكون لها يوماً، ولكنها من داخلها تعلم أنها ستعيش مع زوجها بجسدها لا بروحها، أما روحها ستبقى معلقة بهذا الشاب الذي لم

يفكر بها يوما.

اليوم اشترت ولاء سيارةً جديدةً وجاءت - برفقة نضال - إلى حسام كونه يعمل بمجال التأمين لتؤمن على سيارتها، تفاجأت ولاء عندما التقت بخلود لأنها تعرفها عن طريق صديقتها التي تعيش معها وقد زارتها قبل أيام.

كان حسام ذاهبًا إلى حفل الخطوبة، وقف على جانب الطريق ينتظر سيارة أجرة، توقفت سيارة إلى جانبه ولكنها لم تكن سيارة أجرة بل كانت سوسن، ركب معها، سألته إلى أين يذهب، كان سيجيبها إلى الحفل، ولكنه أجابها بأنه لا يعلم، فقد خرج من البيت ليذهب إلى أي مكان، وكأنه يقول لها أريد أن أبقى معك، كانت سعيدة بهذه الإجابة، وأنا أيضًا خرجت من الملل فزوجي ذاهب إلى خطوبة خلود، وأنا لا تعجبني أجواء الحفلات، كان ينظر لشفتيها بشهوة مفرطة وكانت تقود السيارة بغير وجهة، إلى أن وجدت ضالتها توقفت بالسيارة تحت بعض الأشجار على قارعة الطريق، قبلات تحمل شغف الاستكشاف، لحظات تساوي السنين، كان قلبها ينبض فرحًا وخوفًا، ربما أعجبتها التجربة وليس حسام، أغواها الخروج عن النص، يستهويها أن تجد شابًا كحسام معجبًا بجمالها.

لم يطل الأمر كثيرًا، تتحرك بالسيارة مرة أخرى، تحمل لنا مشاعرنا الثمالة أحيانًا، فهي الآن تضحك بلا سبب ثم تناظر وجه حسام وتعود لتغني مع المسجل قليلاً، ثم يحمر وجهها خجلًا، حسام يعيش لذة المنتصر بالمعركة بعد كل قلب جديد يدركه.

هي تعلم ذلك ولكن يعجبها الأمر على هذا النحو فهو متبادل، وبالنسبة لها هي نزوة لا أكثر.

أوصلته إلى البيت، طلب منها الدخول إلا أنها آثرت العودة إلى المنزل لأن الوقت متأخر.

دخل البيت لا يعلم إن كان ما فعله صوابًا أم خطأً ولكنه كان سعيدًا بذلك ، وقد بات يعلم أن وظيفته أصبحت على المحك، جلس على الشرفة بالرغم من برودة الجو، راح يتأمل نبتته كان يحسدها من داخله لأنها الآن تعيش براحة أبدية، راح يقلب شريط حياته، يسترجع أحلامًا لم تمت لكن لا وجود لها على الواقع، أحلام تلاشت أمام قسوة الواقع.

رن جرس الهاتف الجوال، ألو ألو ... صمت المتكلم قليلاً ثم جاء صوتها الخافت، حسام

نعم حسام، تفضلي

لن أطيل عليك لأني أعلم أن وقتك ثمين، ولكنني أحببت أن أخبرك بأن حياتك ستأخذ منحًا آخر من اليوم، سأقلب حياتك رأسًا على عقب، أجابها حسام مستهزئا ليتك تفعلين ذلك، سأكون لك من الشاكرين، فأنا أحب أن أرى الأمور على النقيض وأظن أنني سأحب حياتي المقلوبة، ولكن من أنت؟

لا يهم، ولا تحاول ذلك، أحببت أن أطلعك على المستقبل، وداعاً.

لم يكترث كثيرًا ولكنه بدأ يخمن من قد تكون، حاول تجاهل الموضوع بمكالمته نضال يسأله عن أخباره وأحواله خاصة بوجود ولاء، وسأله نضال عن سبب غيابه عن خطوبة خلود إذ أنه ذهب هو وولاء واستغربا غيابه، وأيضاً كونهما كلماه على (الموبايل) وكان مغلقًا، فأخبره أنه كان على موعد معهم، وطلب منه أن يزوره في اليوم التالي.

استيقظ صباحاً ووقف أمام مرآته فانتبه إلى عدم وجود سلسلته، بحث عنها بفراشه ولم يجدها، بحث عنها بأرجاء المنزل ولم يجدها، هذه القلادة مهمة بالنسبة له، فقد أهدته إياها شقيقته، كان متأكدًا أنه سيجدها فهو لا يستطيع أن يحتمل فقدانها.

وصل إلى الشركة، دخل مكتبه، طلب منه الفراش الذهاب إلى المدير على عجل، دخل مكتب المدير، طلب المدير منه الجلوس، جلس نضال، كان لديه إحساس بأن ما حدث بينه وبين سوسن له علاقة بهذا إلا أنه استبعد الفكرة، كون لا أحد يعلم بذلك مطلقًا، تفاجأ حسام حين أعطاه المدير قلادته ومعه طلب استقالته، تفضل يا أستاذ حسام، خذ قلادتك ووقع على استقالتك بدون أن نخوض في أي نقاش، وقع حسام على استقالته وخرج.

غير أنه فقد عمله كان همه بما حدث لسوسن، فلم يكن يريد أن يحصل لها أمرًا سيئًا بسببه، كلمها على هاتفها وكان مغلقًا، فازداد قلقه، راح يمشي دون علم بوجهته، كانت الأرض تلف به وأفكاره تتضارب، وصل إلى باب حانة اعتاد زيارتها، هو زبون دائم لذلك

يلاقي ترحيبًا حارًا من النادل، دخل شرب قليلاً وخرج ولم يستطع الجلوس، لم يكن يعلم ما يحدث، ترى هل هاتف مساء أمس له يد بهذا، أوقف سيارة أجرة وعاد إلى المنزل، كان الوقت ما يزال مبكرًا، فخرج من البيت وذهب إلى شادي والذي كان لم يصل بعد إلى محله، جلس حسام بانتظاره، جاء شادي واخبره حسام بما حصل معه، ضحك شادي هذه المرة وضحك حسام معه أيضاً، ألم أقل لك هذه التصرفات لها عواقب، كم مرة يجب أن يحدث لك ذلك لتكف عن تصرفاتك هذه.

حدث ذلك صدفة، لم أكن أريد أن يحدث ذلك، والموضوع انكشف صدفة، لكن المهم أن قلادتي عادت لي.

طلب شادي أن يعود معه إلى البيت لكن حسام كان على موعد مع نضال مساءً.

قبل ذهابه إلى البيت تمشى قليلًا بطريق عودته، أعجبه محل ورد فدخل يريد أن يشتري نبتة أخرى، كانت الفتاة التي تعمل بمحل الورد أجمل زهرة موجودة، طلب منها نبتة زينة.

ما هو نوعها بالتحديد أم تريد أن أريك أكثر من نوع.

لا لا أريد أي نبتة، على كل الأحوال ستموت، المهم أن تكون أغصانها قوية قليلًا، لكي تحتمل الحياة بعد الموت.

استغربت طلبه وأعطته ما يريد وانصرف.

جاء نضال مساءً وكانت ولاء برفقته، حيث أنهما شبه متلازمان خارج أوقات العمل. دق جرس الباب.

صرخ حسام بصوت عالٍ: ادخل

كان حسام جالسا على الأرض وظهره على الأريكة ليكون أقرب إلى مدفأة الكاز، حسام لا يحب أن يظهر ضعفه لأحد – حتى أصدقائه – ، وبسبب وجود ولاء لم يخبر نضال بحقيقة الأمر، واكتفى بأن يقول لهما أنه خلاف في العمل مع مديره أدى إلى تركه العمل.

ما هي إلا دقائق حتى دق جرس الباب مرة أخرى وكانا شادي وليلى، ما إن جلس شادي حتى بدأ يتحدث عن حسام وما حصل معه، أُحرج حسام لأنه لم يخبر نضال بالحقيقة ولكنه برر ذلك بأنه لا يريد أن يفضح الأمر بحيث لا يتسبب بضرر أكبر لسوسن.

غيرت ليلى الموضوع بحديثها، حسام يستطيع أن يجد عملا بأي مجال، وعندي فكرة قد تفيده لهذه المرحلة، بأن يراسل حسام إحدى الصحف اليومية لنشر مقالاته كونه يجيد الكتابة فهذا سيؤمن له دخل يعينه في هذه الفترة فلم يعارض حسام الفكرة بل استحسنها أيضاً والكل كان مؤيدًا لذلك لعلمهم بمدى جمال كتابات حسام وقد كان يكتب في مجلة الجامعة، أظن حسامًا يثق برأي ليلى جدًا ولذلك قبل باقتراحها.

أشرقت الشمس وحسام ما زال مستيقظًا، وضّب بعض كتاباته وخرج باكرًا، دخل أول صحيفة صادفها لكنهم ردوه خائبًا حيث أنهم لا يحتاجون إلى زوايا جديدة وأن عندهم اكتفاءً وهكذا كان الحال مع باقي الصحف، المشكلة أنهم لم ينظروا داخل المغلف الذي يحمله – ولو مجاملة .

في هذا الوقت رن الجوال، أجاب على هاتفه وكانت تلك الفتاة التي اتصلت به مسبقا، قالت: ليس من باب الشماتة ولكن أردت أن أخبرك أن موضوع طردك من العمل ليس بسببي، ذلك أنني بالتأكيد سأسبب لك أذىً أكبر من ذلك بكثير.

مد وجزر من الأفكار داخل رأس حسام، لم يعد يفكر إلا بهذه المجنونة، ترى من تكون وماذا تريد وماذا تستطيع أن تفعل، حاول إخراج الموضوع من رأسه إلا أنه لم يستطع، فبدأ هذا الموضوع يأخذ حيزًا من تفكيره.

أثناء مسيره، مر أمام محل الورد الذي ابتاع منه بالأمس، دون تفكير دخل إلى المحل، لم يعرف ماذا يريد ولماذا دخل، علّه يجرب حظه بقطف تلك الزهرة المتفردة.

تفضل هل تريد نبتة لا تموت هذه المرة.

لا، أريد وردة

وردة واحدة

نعم واحدة

أي نوع ولون تريد أحمر، أصفر، أبيض؟

ليس هناك فرق، أي لون لا يهم

أخذ الوردة وكان لونها ابيضًا وخرج وهو لا يعلم لماذا دخل المحل.

مضى في طريقه إلى البيت تاركاً الوردة على سور بجانب الطريق، جاء الهاتف الذي ينتظره إنها سوسن.

ألو حسام

أهلا سوسن، أريد أن أطمئن عليك، ما الذي حصل بالتحديد، أخبريني

لا عليك لقد انتهى الموضوع على ما يرام، أخبرته أني وجدتك في طريقي وأوصلتك، وأن قلادتك وقعت منك بالسيارة لا أكثر، ولا أعلم إن كان صدق ذلك ولكنه تجاوز الوضع، ولكني آسفة لما حصل لك.

لا يهم أنا بخير، كان كل همي ألّا يحصل لك أي مكروه، أأنت بخير؟

أنا بخير ولكنني أحببت أن أودعك فربما لا نلتقي ثانية، وأن أؤكد لك أني غير نادمة على ما حصل، بل كان أجمل ما حصل معي طوال سنين عمري، وأتمنى أن يجمعنا القدر ثانيةً.

أتمنى ذلك أيضاً، ولكن تذكري أننا من نضع أقدارنا، لا من يحركنا القدر، على كل حال أتمنى أن ألقاك ثانية بخير ودون مشاكل.

إلى اللقاء، هل أستطيع أن أدعوك ولو لمرة حبيبي

طبعا تستطيعين في كل لحظة

إلى اللقاء حبيبي، أتمنى أن يكون الحظ حليفك دائماً

هدأت نفسه قليلاً فهو لا يحب أن يسبب المتاعب للآخرين، مساءً ذهب حسام إلى بيت شادي لتناول العشاء، فهو يحب الطعام الذي تحضره ليلى كثيرًا، وجود والدة شادي وأخوته يعطيه شعورًا بحنان مفقود منذ بداية شبابه، عاش وحيدًا وأحب هذه الحياة،

برغم افتقاده الكثير، ليلى يحبها بمثابة أخته، خاصة بعد وفاة أخته بحادث سيارة.

يقال إن الأرواح تتآلف دون تخطيط أو علم أو سلطة من أنفسنا، ربما تكون هذه الأرواح لأصدقاء، أو أقارب أو أحباء في عالم آخر.

في اليوم التالي أفاق عصرًا، ونزل إلى السوق ولكنه تعمد الذهاب هذه المرة إلى محل الورد، أو ربما كان نزوله إلى السوق لهذا الهدف وحسب، بدأ ينظر بأنحاء المحل، لم يكن يعنيه شيء من المحل سوى هذه الفتاة. تلك الابتسامة التي ترتسم على محياها كلما رأته، رغم أنها تحاول أن تخفيها عن شفتيها إلا أنها واضحة كإشراقة شمس شتوية.

قال لها: ما اسمك؟

وهل يهمك ذلك!

لا ولكن أحب أن أعرف

لن أقول لك

كما تشائين، أعطني وردة بيضاء

بدأت تعرف ما تريد

لا، لا أعرف ما أريد، ولا أعلم لم أنا هنا الآن

أخذ وردته البيضاء وانصرف، ولكن هذه المرة أخذها معه إلى البيت، بدأ يفكر لم ذهبت إلى هذا المحل، هل أكون معجبا بتلك الفتاة وإن كنت كذلك لمَ لم أخبرها ذلك بكل بساطة.

عاد إلى البيت ولم يعلم أن طيف الحب يسري بدمه، بل ويستنشقه مع أنفاسه.

مساءً، جاءه اتصال من فتاة مجهولة، أخبرته أنها معجبة به وأنها تعرفه جيدًا، وطلبت منه أن تأتيه إلى المنزل ووافق على ذلك ولماذا كان سيرفض عرضاً كهذا، دخلت إلى المنزل ولكنه لم يعرفها مطلقاً حتى أنها لم تكن مألوفة لديه، قالت له بأنها كانت عميلة بالشركة وأنه ربما لا يذكرها، كانت جميلة ولذلك كان سعيدًا بهذا المساء سهل المنال.

كانت تجلس على الأريكة المقابلة له، مع مرور الوقت والكلمات والضحكات أصبحت بين ذراعيه، هو من يستحق أن يكون أمير الكلمات وسفير القبل، بعض كلماته تصيب الأعماق، تلامس الروح، وأخرى تداعب المشاعر المتعبة من ملل الكلمات الزائفة والكثير منها ليرسم الضحكات على الوجوه البائسة.

أيقظته باكرًا بعد أن أعدت له قهوة الصباح، لم يكن يريد أن يستيقظ إلا أن رائحة القهوة أغوته هذه المرة. آخر ما كان يتذكره أنه كان ممسكًا بفنجان قهوته عندما بدأت عيناه تذبلان وترفضان أن يستيقظا، أفاق على سرير آخر كان نضال هو من أيقظه بقسوة وغضب وانهال عليه ضربًا، ولم يكن حسام يعلم بما يحصل، أن تستيقظ وصديقك ينهال عليك ضربًا في بيت غير بيتك، إنه ضرب من الجنون، حملوه إلى المستشفى والدم يغطي وجهه، كانت كلمات نضال تدور برأس حسام الذي يفيض دماً، لماذا فعلت هذا؟!

سأقتلك أيها النذل الحقير.

لم يجد تفسيراً، خرج من المستشفى كان الجيران هم من أوصلوه إلى المشفى ولم يكن يحمل شيئًا من أغراضه، وكان أحدهم بانتظاره عند خروجه سأله: إلى أين تريد أن تذهب؟ فأعطاه عنوان محل شادي فأوصله عنده، راح يصرخ شادي ما بك؟ ما الذي حصل لك؟ أخبرني، لم يكن عنده تفسير أو أية إجابة، أخذ علبة السجائر وأشعل سيجارة.

أرجوك أعدني إلى البيت لنتحدث لا أعلم ما الذي حصل معي، دخلا البيت وبدأ حسام يحدث شادي بما حصل معه، استغرب شادي مما حصل، إنه بمثابة أحجية، أخذ حسام يبحث عن هاتفه فلم يجده حتى فنجان القهوة الذي كان يشرب منه صباحًا قبل أن يحدث هذا لم يجده حتى أنه لا يعرف عنوان الشقة التي وجد نفسه فيها.

جاء اتصال لشادي من ولاء، كانت تبكي وهي تتحدث على الهاتف ولا تستطيع أن تجمع كلماتها، طلب منها شادي أن تأتي إلى بيت حسام، بدأت معالم الموضوع تتضح قليلًا بالنسبة لحسام وشادي.

بعد قليل وصلت ولاء ودخلت لاهثة والدموع على خدها

ما بك، ما الذي حصل لك أيضاً، ماذا فعل نضال لك؟

جاء إلى العمل، كان بحالة هيستيرية، كان يتحدث أحاديث غريبة، عن خيانتي له مع صديقه ولولا أن موظفي الأمن سحبوه

خارج الشركة لربما قتلني، لم تريا كيف كان يتحدث، لقد جن.

انظري ماذا فعل بحسام

إذن يظن أننا ...

نعم يظن ذلك، هل لك أن تأخذينا إلى بيتك لو سمحت

لماذا، ماذا هناك

سوف تعلمين ولكن خذينا إلى هناك أولا

أخذتهما إلى بيتها ومنذ أن وصلوا باب العمارة علم حسام أنه نفس البيت الذي كان فيه هذا الصباح، دخلوا إلى البيت وكانت الفوضى تعم المكان، دخل حسام غرفة النوم فوجد هاتفه وسجائره أيضاً

أصيب الجميع بصدمة، خاصة ولاء.

أخبراني بما يحدث حولي ما الذي حصل

قصَ عليها حسام ما حصل معه بالتفصيل

كانت تكاد لا تصدق ما حدث، شادي لم يشك لحظة بصدق حسام مع أن ما حدث يكاد لا يصدق، عادوا جميعًا إلى بيت شادي ليتوصلوا إلى حل أو تفسير على الأقل.

فاضت عيون ليلى بالبكاء عندما رأت الضمادات على رأس حسام وبعض الكدمات في وجهه.

وانهالت عليه أسئلةً ما الذي حصل لك؟ هل أنت على ما يرام؟

لا تخافي ما من شيء، إنها مجرد خدوش صغيرة، بدأ حسام يقص القصة بأدق التفاصيل، اتصل شادي بنضال وذهب لرؤيته

بمفرده وما أن بدأ بالحديث حتى تحشرج صوته وأجهش بالبكاء، هدأ من روعك، ما الذي حصل؟

جاءني اتصال يقول لي أن حسام يخونني مع ولاء وهو الآن ببيتها، ذهبت إلى هناك وكان الباب مفتوحًا دخلت فكان حسام نائمًا على سريرها وملابسه بكل أنحاء الغرفة.

ماذا تريدني أن أفعل؟!!! حبيبتي تخونني مع أعز أصدقائي

هناك مكيدة بالموضوع، حسام كانت عنده فتاة ليلة أمس، وصباحًا شرب القهوة وقد وضع له مخدر في الفنجان، واستيقظ على ضربك له، هذا ما حصل ... هناك من يريد أن يوقع بينكما.

وهل انطلت عليك هذه الكذبة، اتركني وحدي، أرجوك أكاد أجن.

كما تشاء، ولكن تذكر أن حسام لا يمكن أن يفعل ذلك وكذلك ولاء، قبل أن أذهب من الذي كلمك وأخبرك أن ولاء تخونك مع حسام

لا أعلم، فتاة حدثتني ولم يظهر الرقم، كان الرقم مخفياً

عاد شادي وهو متأكد أن هناك مكيدة بالموضوع، دخل البيت وما زال الحزن مخيم على الجميع.

انتبهت ليلى إلى نقطة أخرى، كيف استطاعوا أن يدخلوا حسام إلى بيت ولاء، من أين لهم المفتاح؟

اتصلت ولاء بصديقتها مرح، هل أعطيت مفتاح الشقة لأحد؟

لا، المفتاح معي ومعك فقط، هل حصل شيء، هل سرق البيت؟ أم ماذا؟

لا، لم يحصل شيء، مسألة بسيطة سأخبرك عند عودتك، هل معك رقم بواب العمارة؟

نعم، سأبعثه لك، لكن ما الذي حصل؟ أرجوك لقد أقلقتني كثيرًا

سأخبرك عند عودتك، لا تقلقي

كما تشائين، مع السلامة

اتصلت مع بواب العمارة، وكان الهاتف على مكبر الصوت، ليتمكن الجميع من سماع المحادثة.

ألو مرحبا، أبا سمير

نعم أنا أبو سمير تفضلي

أنا ولاء أقيم بالعمارة بالطابق الثالث

كيف حالك يا ابنتي، ما الذي حصل اليوم عندكم

لهذا أكلمك، فأنا لم أكن موجودة، وأريد أن أعرف ما حصل أو ما تعرف بالتحديد

صباحاً جاءت فتاتان وكانتا تسندان شابًا بدا أنه ثمل أو مريض ولا يستطيع الوقوف، دخلوا إلى العمارة، ثم خرجت الفتاتان، بعدها بنصف ساعة تقريبًا جاء شاب ودخل مسرعا أظن إنه الشاب الذي يأتي برفقتك دائماً، عندها بدأنا نسمع صراخًا كان الجيران قد سبقوني وخرج ذلك الشاب، وبعدها أخرجنا الشاب الذي جاءت به الفتاتان وكان رأسه ينزف وذهبوا به إلى المستشفى، أردت أن أكلمك أو أكلم مرح ولكن ليس لدي أرقام هواتفكما، هذا ما حصل بالتحديد.

ولكن هل رأيت الفتاتين من قبل؟

لا أعلم، لا أذكر أنني رأيتهما، بصراحة كنت أنظر من شباك غرفتي، كنت نائما تقريباً

شكرا لك يا عم، إلى اللقاء

هذا يعد دليل براءة حسام مما حصل، ويؤكد تماماً أن هناك مؤامرة في هذا الموضوع.

حسام تذكر كلام تلك الفتاة التي هددته على الهاتف، وذكّر شادي بذلك

سأل شادي حسام إن كان يحتفظ بالرقم الذي كلمته منه، وكان لديه فأخذه شادي ليتتبعه ويعرف صاحب الرقم.

حسام كان حزينًا على نضال أكثر من حزنه على ما حصل معه وكان لا يلوم نضال على ما فعل وطلب من شادي أن يلازمه ولا يتركه بهذا الوضع.

مساءً، ذهب شادي إلى نضال وطلب منه أن يرافقه إلى بواب العمارة أبي سمير فهو دليل براءة، تكلما مع البواب وأخبرهما بما حصل إلا أن نضال لم يصدق ذلك، بل وكان متأكدًا أن حسام دفع له ليقول ذلك، شادي لم يعد يعلم ما يتوجب عليه أن يتصرف، لم يستطيع أن يحل المسألة، فالموضوع بات شائكًا، حاول أن يقنع نضال، ولكن دون جدوى.

تفاجأت مرح بما حصل، بل وانزعجت كثيرًا لأن ذلك سيجعل سكان العمارة يتكلمون عنهما، وذلك يعد فضيحة لهما.

في اليوم التالي جاء اتصال لحسام من تلك الفتاة، ألم أقل لك سأقلب حياتك، ولكنك استهترت بي، هذه الضربة الأولى وأعدك بالمزيد.

أغلقت الخط قبل أن يتفوه حسام بكلمة، ثم اتصل شادي وأخبره حسام بهذا الاتصال وسأله إن كان توصل لشيء عن صاحبة هذا الرقم، ولكن شادي أجابه بخيبة أمل أن هذا الرقم غير موثق.

افترق الصديقان وافترق الحبيبان ولم يبق من هذا الموضوع سوى علامات الاستفهام والقلوب المنكسرة، قلب فتاة تركت حياتها بكل ما تحمله من أحلام وأصدقاء وأهل من أجل حب تمزق عند أول سلك شائك.

وقلب شاب انفطر على فراق صديق عمره واتهمه بالخيانة وقسمت روحه، وشاب آخر خسر حبه الأبدي وصديقه الأعز فكان أعظم الخاسرين.

بات شادي وليلى كالوالدين للجميع، نضال الذي كانت تمر أيامه سنين فكان من الصعب عليه الخروج من هذه الصدمة وكان لا بد لهما من متابعته بشكل دائم، ولاء التي لم تعد تملك أحدًا بهذه الدنيا سواهما، وكانا على اتصال دائم بها وخاصة ليلى، أما حسام مع أنه كان قويًا إلا أن هذه الضربة كانت قويةً جدًا لم يعد يخرج من البيت سوى لجلب الكحول والقليل من الطعام.

أمل

كان قد مر شهران عندما سقطت آخر ورقة من نبتة حسام، يومها خرج حسام من البيت كان ذقنه طويلا فهو لم يحلقها منذ تلك الحادثة، أراد أن يشتري بعض الحاجات ويعود للمنزل مباشرة، إلا أن شيئًا جعله يتذكر فتاة الورد، لم يدخل هذه المرة، نظر من الخارج وكانت هي تراقبه أيضًا، لقد مرت أيام وأيام وهي تنظر للخارج علّه يأتي بأية لحظة، كانت أفكارها متضاربة، ما الذي يشدها له، ولما تريد رؤيته؟ لم تكن تجد تفسيرا ولم يكن بداخلها سوى اللهفة إلى رؤيته.

اكتفى برؤيتها من بعيد، مضى وقلبه معلق على زجاج محلها، كانت رؤيتها منشط لروحه.

يا لك من ماكر بدأت تنسج خيوطك قربها، تقنع نفسك بعفوية المشاعر، أراك تعيش الحب بكل نزوة مقصدها ملذاتك، كفاك كذباً على نفسك واخرج من سباتك، نفسك التي علمتها كيف تجاريك، بل وفاقت عليك احترافا أن تجد لك ملاذاً بحب آخر عن وحدتك يغنيك.

أما هي فقد تجددت بداخلها بذور حب دفين لم يخرج من ثنايا العقل الباطن، عاد إلى البيت وعقله لا يذكر سوى لحظة رؤيته لها، هذه اللحظة التي اختلط بها الحزن والأسى، الفرح والسعادة، الشوق واللهفة، الأوهام والواقع، الفكر مشتت والقلب يدق بسرعة والعيون تنظر بخجل الأطفال.

لم يطل المكوث في البيت، كان لا بد أن يخرج من هذا الوضع المزري، لا يمكن أن يقتل أمامه بهذه الطريقة، بدأ بحلاقة وجهه ثم وضب أغراضه وذهب لشركة سفريات متجهاً للعقبة، فهذه الحالة لا يعالجها سوى البحر، طبيب النفوس المرهقة.

وصل مدينة العقبة عند منتصف الليل تقريباً، أخذ غرفة بالفندق وضع أغراضه ونزل يمشي بخطوات سريعة حتى انه قد بدأ بالركض يريد أن يصل البحر بأسرع وقت، دخلت قدماه الماء، بهذه اللحظة كان كغريق وصل إلى شاطئ الأمان.

صرخ بأعلى صوته، جميع من حوله التفت باتجاهه، لكنه لم يلاحظ ذلك، نزل على ركبتيه بالماء، كان ينظر لعرض البحر والموج يتلاطم على جسده وشريط حياته يمر أمام ناظريه، طفولته، عائلته، أصدقاؤه، حبيباته الكثيرات، أحلامه، لحظات فرحه وحزنه، ضحكاته المنتشرة بكافة أرجاء حياته.

هز رأسه ليخرج من هذا الموقف العصيب على روحه، نهض وبدأ بالسباحة، دخل في عرض البحر، كان الموج عالياً، كان الجميع يصرخ له بأن يعود فالموج عال جدا، إلا أنه لم يكن يسمعهم، ما هي إلا دقائق حتى خرج من الماء، كان محط أنظار الجميع، أخرج علبة السجائر من جيبه ورمى بها أرضاً، جاء نظره على رجل خمسيني يجلس مع عائلته كان يحمل سيجارة بيده وهو لم يكن بهذه اللحظة سوى سيجارة، وقف أمامه: هل لك أن تعطيني سيجارة فعلبة سجائري قد تبللت؟ أخرج سيجارة وأعطاه إياها وأعطاه ولاعة،

أشعل السيجارة وأعاد الولاعة للرجل.

شكرا لك، أراد أن يمضي ولكن الرجل استوقفه.

اجلس يا بني، أريد أن أسكب لك كوبًا من الشاي إن كنت لا تمانع

طبعًا لا أمانع

ما فعلته كان جنونيًا، فالموج عالٍ ولا أحد يسبح بهذا الوضع

لأول مرة يفضل حسام الصمت على الكلام، اكتفى بأخذ رشفة شاي، علم الرجل أن حسام بحال لا تسمح له بالحديث، شرب حسام كوب الشاي وشكر الرجل على لطفه، سار باتجاه الحانة، شرب ما يكفي ليجعله يترنح في مشيته ويثقل لسانه ويؤمن له نومًا مريحًا دون متاعب الأفكار، عاد إلى غرفته، رمى نفسه على سريره.

اجمع رفات روحك وانثرها على شتات ليلك الطويل، فلربما لملمها الليل وقد انسجم في سوادك.

استيقظ باكرا ونزل إلى الشاطئ.

وجودك قرب البحر يصفي الذهن وينعش الروح، يغسل هموم النفس كلما نظرت إليه أو استمعت لصوت تلاطم أمواجه، وهذا تماماً ما كان يحتاجه.

شعرها الأشقر المتطاير، قلمها الذي يرسم ظل القوارب على الماء، جلستها الصباحية الهادئة، جعلته يتوقف بجانبها.

لو كنت على ظهر ذلك القارب هل كنت سترسميننني معه؟
إن كنت ستطيل وقوفك، لرسمتك
وما الذي كنت سأرمز له؟ ما دوري بهذه اللوحة؟
بوجود البحر لا شيء له قيمة تذكر
إذاً، لماذا ترسمين هذه القوارب؟
البحر من يجعل للقوارب أهمية
أو لا يجعل من صنع القارب أهمية أيضاً فبدونه لا يوجد قارب
طبعا له أهمية ولكن ليس بهذه اللوحة
يضيف جمالية لها، إذا القارب أضاف شيئا للبحر
لقد أدخلتني بدوامة، ماذا تريد مني الآن؟
أريد منك أن ترسمي لي روحي
يبدو أنك مختل عقليًا
نعم قليلاً، اسمحي لي أن اذهب
كما تشاء ولكنني أريد أن أرسمك وأنت تقف فوق القارب
أي قارب؟ أنظرت إلى القارب وكان قد تحرك، إن أردتِ فارسميني وأنا أتناول فطوري
سأرافقك إذا لم تمانع
بل أكون مسرورًا بذلك

أفطرا معًا، تحدثا بعض الوقت، ثم صعدت هي لغرفتها، أما هو فعاد للسباحة، عند الظهيرة خرج إلى السوق ليتجول ويأكل بمطعم يختص بطهي السمك، كان سعيدًا بوقته إلا أنه أحس بالملل

لوجوده وحده دون رفيق، فقرر أن يعود مساءً إلى عمان.

وصل إلى البيت منهكًا وسعيدًا بعض الشيء، وقرر ضرورة حصوله على عمل، وفي اليوم التالي خرج من البيت وأول ما خطر بباله فتاة الورد، دخل إليها وكان قد وضع برأسه سيناريو للحديث ولكن كالعادة لم يخرج شيء من كلامه المخزن برأسه سوى صباح الخير، أريد وردة بيضاء، أخذها وخرج وقلبه ينبض وقلبها يكاد يخرج من جوفها.

بينما كان يسير بجانب الطريق، كان هناك من يوزع صحفًا إعلانيةً مجانية أخذ واحدة علّه يجد عملا، فقد طالت فترة سباته هذه.

ذهب لرؤية شادي، لاحظ شادي تغييرًا وتحسنًا كبيرًا على حسام، أشاد بذلك وشجعه على تجاوز الموضوع، ولكنه حذره من تصرفاته الطائشة وخاصة أن هناك من ينصب الشراك له، وطمأنه على نضال وأنه بدأ يستعيد نفسه شيئًا فشيئًا، هم يعلمون أن نضال لن يستطيع تجاوز ذلك مهما تقدم الوقت، إلا إذا ظهرت الحقيقة له فذلك هو علاجه الوحيد.

ما هي إلا أيام حتى جاء الاتصال السعيد لحسام بقبوله بوظيفة كان قد تقدم لها بأحد الشركات وطلبوا منه أن يأتي اليوم التالي ومعه أوراقه ليباشر عمله.

وفعلا كان ذلك، ذهب إلى الشركة ووقع عقد العمل، كان العمل جيدًا نوعًا ما، فهي شركة إعلانية كبيرة وعمله بالعلاقات

العامة، فهذا العمل قد يفتح أمامه آفاقًا جديدةً بالمستقبل.

عند خروجه اتصل بشادي وأخبره بحصوله على عمل ودعاه لسهرة احتفالا بهذه المناسبة، كان يود لو أنه يستطيع أن يكلم نضال بهذا الوقت ولكن ما باليد حيلة.

خرجا تلك الليلة وسهرا حتى الفجر وعاد إلى البيت وكان همه أن يستيقظ باكرًا، ضبط المنبه ونام بسرعة فائقة.

ولكن كالعادة وصل إلى العمل متأخراً في أول يوم دوام له، دخل إلى المكتب، وكان مديره هذه المرة سيدة – كانت بانتظاره بمكتبه – تتكلم مع زميلته بالمكتب.

أهلا حسام، إن كان اليوم الأول لك هكذا، فما حالك في الأيام المقبلة، هل ستأتي مساءً؟

أولاً، صباح الخير، ثانياً، هل تريدينني أن أكون مثل منتخبنا لكرة القدم نبدأ بأداءٍ ممتاز، ثم نخسر المباراة؟

– سأتجاوز عن تأخيرك اليوم، ولكن أرجو ألا تجعلها عادة، وأريد منك أن تبهرني بأدائك في العمل لا بتحلليك لكرة القدم.

أعرفك بزميلتك في المكتب «رنا»، وأنا مديرة قسم العلاقات العامة في الشركة واسمي «مها «وتستطيع أن تناديني «أم جميل»

رنا ستطلعك وتدربك على العمل، حاول أن تطلع على كيفية العمل بوقت سريع.

جلبت رنا بعض الأوراق وكرسيها وجلست بقربه، وبدأت تشرح له شرحًا دقيقًا عن طريقة العمل من كافة النواحي، بعد

نصف ساعة من هذا الشرح المفصل والمواصل، هل فهمت؟ كل شيء واضح الآن؟

لا لم أستوعب شيئًا مما شرحته

لماذا؟

فأشار إلى أزرار قميصها، وكانت الأزرار العلوية مفتوحة

ابتسمت، آسفة لذلك، ولكن لما لم تقل لي ذلك من البداية

آسف كنت أريد أن أقول ولكنني نسيت

إذا سأعيد لك، ولكن هذه المرة ركز، الغريب أنها لم تغلق الأزرار.

عند خروجه من العمل قرر الذهاب إلى فتاة الورد التي لا يعرف اسمها حتى، وبكل بساطة أن يخبرها بأنه معجب بها، دخل المحل، وقف أمامها، ابتسم، وبدون مقدمات وكأنه لم يعرف من نساء العالم غيرها قال: أنا معجب بك، ولم يعطها مجالاً للإجابة قائلاً لا أريد منك إجابة الآن، أأعود إليك غداً؟

لا داعي لعودتك.

- ولم يترك لها المجال لتكمل حديثها حتى- كما تريدين، لن أعود مطلقاً، وداعًا

خرج وهو مصدوم ولكنه مرتاح نفسيا فهذا ما أراده، وهي التي لا تدرك ما حصل، كيف دخل وتكلم وخرج، قتل آلاف الكلمات داخلها وخرج.

التقى بشادي مساءً يحكي له تفاصيل يومه الأول في العمل وقصته الغريبة مع هذه الفتاة، شادي ضحك بشدة.

حقاً، أهكذا تحادث فتاة؟ ما الذي حصل لك؟ كان حري بها أن تضربك أيضًا، سأقول لك أمراً، أنت تحبها فعلا.

أنت تعلم ألّا مكان للحب عندي، وما حصل لا يعد سوى ....

نعم إنه يحبها، ربما لا يعلم ولكنه يحبها أؤكد لكم ذلك، ولكنه لا يستطيع أن يصارح نفسه بذلك، أو لعلَه يرى أن ذلك يتعارض مع أفكاره ومخططاته للمستقبل فيرفضه، ولكنه يراها بكل لحظة من لحظات حياته.

تمضي الأيام ونحن نقف على ضفاف بحر الأحلام والأمل، الحلم الذي كنت تصفه بالواقع، والأمل الذي تنبض به أرواحنا، وتكمن سخرية القدر أن البحر لا ينضب، لذلك سنبقى نحلم حتى ينضب العمر.

شادي حدّث حساماً يأخذ رأيه لأنه يريد أن يفتح محلاً لبيع الآلات الموسيقية، ولكن حسام فهم ما يدور بعقل شادي، أنت بدأت تتخبط، حلمك أن تكوّن فرقة موسيقية لا أن تبيع آلاتٍ موسيقية وأنت تعلم أنه مشروع فاشل فلا أحد يهتم بشراء الآلات الموسيقية. ولكنك تبحث عما يعوضك عن حلمك الضائع، سأقترح عليك اقتراحا، لماذا لا تعود إلى الماضي الجميل، حاول أن تجمع فرقة موسيقية.

عن ماذا تتحدث تغيرت الأمور، مر زمن على ذلك، لا أنكر أن هذه الأفكار لم تفارقني، ولكن وقتي لا يسمح مطلقاً، العمل والأسرة وما إلى ذلك ...، وحتى لو أردت ذلك من أين لي أن أجمع فرقة موسيقية، هل تريد مني أن أعزف وحدي، لم أعد أعرف أحدًا بهذا المجال أصلاً.

اشترك بأحد المعاهد الموسيقية سيفتح ذلك آفاقًا جديدة، ستجد من يهوون العزف ويشاركونك حلمك.

كيف لي أن أجلس بصف أتعلم الموسيقى، لا أستطيع ذلك.

إذا ما رأيك أني سأشترك بمعهد ومن ثم تأتي إلى المعهد كأنك تأتي لزيارتي فتحتكّ بالموجودين، يجب أن نحاول فعل شيء، لن أخسر شيئا وكذلك أنت.

لا أدري، لقد أحييت بي أملاً قد مات منذ زمن.

فرحت ليلى للفكرة وأيدتها، فهي تعلم جيدًا موهبة شادي الموسيقية، لطالما أحبت عزفه وحلمه وموهبته، كما أن ذلك سيحيي روح شادي.

في اليوم التالي بعد خروجه من العمل ذهب حسام لمعهد موسيقي وهو يحمل قيثارة على ظهره

أهلا بك، هل أنت موسيقيّ أيضًا.

نعم ألم تلاحظي القيثار الذي أحمله، كانت تلك الفتاة هي سدين التي قابلها بالعقبة قرب الشاطئ

على الرغم أنني كن أستبعد ذلك.

ولكن حسبتك رسامة فقط، أم أنك متعددة المواهب.

لا، هذا المعهد لوالدي، وأنا أعمل به إداريةً فقط.

أنا أريد أن أتعلم العزف، لم أكن عازفا من قبل، ولكنها هواية جديدة لي

كما تريد، هل تريد أن تسجل في المعهد؟

نعم ولكن أريد أن يكون الدرس بعد الرابعة، فأنا لست متفرغا

ذهب لمنزل شادي مساءً ليطلعه على المستجدات، التقى بولاء في بيت شادي، كان هذا اللقاء الأول لحسام وولاء بعد تلك الحادثة، كان هناك حاجز يفصلهما كأنهما فعلا خطيئة، حسام ما زال يلوم نفسه ويرى انه السبب لما حصل مع انه لا يذكر انه تسبب بأذىً لأحد مع كل العلاقات التي مرت بحياته إلا انه لم يؤذِ أحدًا، بل كل فتاة مرت بعلاقة معه تحمل ذكرى طيبة وحسب.

ولاء – من باب النصيحة – ، طلبت من حسام أن يخفف من نمط حياته السريع الذي ينقصه الكثير من الاتزان، وأن يكون أكثر حذرًا، لأن ما حدث قد يتكرر بصورة أخرى وربما يحدث ما لا تحمد عقباه.

لا تقلقي فقد حدث الأسوأ وليس هناك ما قد يضرني أكثر من ذلك، ولكنني أعدك بأن الحقيقة ستظهر وأما الفاعل فسيكون حسابه عسيرًا.

وما قصتك مع الموسيقى لم أكن أعلم أنها من ضمن اهتماماتك؟

ليست من اهتماماتي، ولكنها تخص شادي أكثر مما تخصني، لذا تستطيعين أن تطلقي عليَ لقب «كبش فداء» وأنا سأحتمل هذه السخافات فهذا هو قدري.

سخافات أيها الجاهل، إنها غذاء الروح

ولكن هل تعلم، سيكون الوضع جيدا في المعهد، فهناك الكثير من الأمور المحببة لي «غذاء روحي»

تقصد الفتيات

نعم وهن كثيرات، هل الفتيات يحببن الموسيقى والعزف أكثر؟ سأعزف حتى الموت، لا تنس أن تأتي معي غداً، نذهب معًا ونعود معًا

جاءت ليلى تحمل القهوة وهي تضحك، لماذا اخترت القيثار، لو اخترت الناي أفضل فهو أخف وزنًا وأسهل حملًا.

معك حق ولكن منظره جميل أكثر، كما أن هذا ما وجدته أمامي، دخلت محلا لبيع المعدات الموسيقية فاخترته لأني لا أعرف أسماء الآلات الأخرى، سترين كيف سأجعلهم ينتحرون من عزفي غدًا.

في اليوم التالي ذهب مع شادي إلى المعهد وأخبرهم بأن شادي سيرافقه دومًا ليعودا معًا، جاءت المدربة وأخبرت طلابها دخول القاعة أما شادي فدعته للدخول كضيف.

حسام كان أحد طلاب المعهد أرادت أن تعرف مستواه فطلبت أن يعزف لها شيئا، والمشكلة أنه لا يعرف شيئاً، أخرج القيثار وأمسك به، نظر إلى شادي وابتسم، ثم قال لها: اسمعي أنا لا أعرف شيئًا وجئت لأتعلم.

وأنا لم أطلب منك المستحيل، قلت لك اعزف أي شيء مهما كان أم أنك خجول؟

ضحك هذه المرة وبدأ بالعزف ويا له من عزف، شادي لم يتمالك نفسه من الضحك.

أرأيت هذا ما أردته، أردت أن أعرف مستواك لأرى من أين سأبدأ معك.

كانت سدين تقف عند الباب تضحك بشدة أيضاً.

عاد مع شادي بالسيارة ولكنه طلب من شادي أن يعدل طريقه حتى وصلا أمام محل الورد.

ها هي

تبدو جميلة، هل ستدخل أم ماذا؟

لا، يكفي هذا، لقد نسيت الموضوع بأكمله

إن كنت نسيته، لماذا أحضرتنا إلى هنا

بهذه اللحظة كانت قد لمحته وهو داخل السيارة خاصة أن مصباح السيارة الداخلي كان مضاءً، كان أملها أن يدخل فتراه ولكن هذا لم يحصل، بداخلها شيء ما يخبرها أن هذا الطيف سيكون شيئا ثقيل الوزن بالنسبة لها، فمع كل يوم يزداد مقدار التخبط داخلها

وهذا ما يزيد حجم مشاعرها تجاهه فتكبر رويدًا رويدًا حتى تطال جوارحها.

لكي أراها وتراها أنت، هيا أعدني إلى البيت.

لذلك فقط، يبدو أن هناك ما تخفيه.

رن جرس الهاتف، وكانت سوسن من يتصل، نظر إلى الرقم وعاد بذاكرته للحظات جميلة مر بها.

ألو

ألو حسام

أهلا سوسن، أسعدني اتصالك

أين أنت؟ اسمع ضجيج سيارات

أنا في طريقي إلى البيت

هل تقبلني ضيفة عندك هذه الليلة

نعم بالتأكيد، أنا بانتظارك

كأنها تتعمد أن تأتيه والمطر، فالمطر بدأ بالهطول بغزارة منذ قليل، كان بقمة سعادته في تلك اللحظات، من المؤكد أنها استطاعت أن تترك أثرًا قويا داخل حسام، استطاعت أن تجد لنفسها زاوية في قلبه، شخصيتها الثابتة والقوية وجمالها الطاغي وذكاء تعاملها مع شخص كحسام، كل ذلك يجعل منها مميزةً إلى حد التجرد.

بهذا الوقت كانت فتاة الورد قد عادت إلى البيت وعقلها وقلبها معلقان بهذا الشاب الذي لا تعلم عنه شيئاً، تجلس وتتكلم مع أهلها ولكنها تسرح بخيالها بعيدًا مع هذا الشاب، ترسم سلاسل متقطعة

لحكايات الخيال، تجمع قصاصات ذاكرتها التي جمعتها معه لتكون قصة وحكاية.

بعد أيام وبعد خروجه من صف الموسيقى، كانت سدين تجلس خلف مكتبها – كالعادة –، وقف عند باب مكتبها متكئا ما هو برنامجك الليلة ؟، بالتأكيد خاوٍ من أي نشاط، أراهن على ذلك.

لماذا تسأل؟ هل تريد أن أرسم مشاعرك هذه المرة؟

تبدو فكرة جيدة، وهل نخرج الآن؟

الآن، هيا بنا.

دخلا إلى المطعم وكان القدر قد جهز له مائدة على ذوقه الخاص، كان هناك رجل يجلس على طاولة مع بعض الأشخاص وعندما شاهد حسام يدخل وقف وسار باتجاهه.

أشكر الصدفة التي جمعتني بك

لماذا؟ ليس هناك ما يستوجب أن نجتمع.

أنا والدك، هل نسيت ذلك، ربما نسيت كيف تكلم والدك أيضًا

أبي أرجوك، نحن لسنا بمفردنا، وهذا الموضوع لن يحل وأنت تعرف ذلك، دعني وشأني فقط، هذا ما آلت إليه الأمور.

لا لن أدعك هذه المرة، يجب أن نصل إلى الحل لهذه القطعية الحاصلة بيني وبينك وبين أمك أيضًا

سأقول لك أمراً، أنت وأمي كلٌ اختار حياته دون التفكير بأية عواقب وأنا لا ألومكما على ذلك، وأنا لي حياة منفصلة عنكما تماماً، وداعاً

سدين لم تنطق بكلمة، بعد كل ما حصل، خرجا من المطعم على عجل.

لا عليكِ مما حصل، هذا أمر عادي بالنسبة لي، ما رأيك إلى أي مطعم تفضلين الذهاب؟

لا أعلم، اختر أنت، لا فرق عندي

كان يظهر اللامبالاة إلا أنه يتقطع من الداخل، عاد بذاكرته كيف كان طعم الحياة برفقة أسرته، فقد كان صديقا لوالده وكيف تحولت الحياة ليكون لقاؤهما بهذه الفضاضة.

وصل إلى العمل في اليوم التالي، وكان قد حقق تقدمًا جيدًا في العمل، جاءت أم جميل إلى مكتبه

صباح الخير حسام – ظن أن هناك مصيبة جديدة – سيكون لك مستقبل جيد بهذا العمل، فنجاحك غير مسبوق، ارجو أن تبقى بنفس النسق، وأنت كذلك يا رنا

اتصل به شادي وطلب منه أن يأتي إلى البيت دون أن يتأخر، فتحت ليلى الباب وكانت فرحة جداً، لم يصدق عيناه أو ما يحصل، عانقه نضال بحرارة غامرة، وفاضت أعين الموجودين بكاءً بمن فيهم حسام باستثناء شادي الذي ابتسم وبعينيه ألف دمعة.

لقد تجمدت محاجر الدمع عند شادي مع الزمن، يغدو الإنسان حجرًا بعد وقت ما، بالتكوين الأولي نحن متشابهون، وما أن يصيح المولود صيحته الأولى في هذه الحياة، تبدأ التقلبات والتحور شيئا فشيئا، كالماء الذي ينحت الصخر مع كل كلمة ونظرة وموقف

صدام وتضارب، استكانة وانهزام، يأس وسعادة، وتمضي الأيام.

هل هو القدر من يتلاعب بنا ليمنحنا الفرح بلحظات ويسرقه بلحظات أخرى؟ أم نحن وتصرفاتنا من نفعل ذلك، أم الاختيارات هي التي كانت خاطئة لتؤدي بنا إلى طرق لم نرسمها بعقولنا.

الاختيارات هي حجر الأساس لطريق حياتنا بأكمله، فمع كل اختيار نلغي طريقاً ونسلك طريقاً آخر، ولذلك كل اختيار يترتب عليه اختيار آخر وهكذا تسير بنا الحياة، المشكلة انه لا يوجد خيار (جميع ما ذكر)، فلو كان موجودا ليسّر علينا الكثير، نحن نحاول أن يكون خيارنا صحيحًا ولكن المعضلة تكمن بأنه ربما يكون الخيار الخاطئ بتلك اللحظة يحمل لنا الكثير من الأمور الحسنة، ولكن هذه هي قواعد اللعبة، ونحن مجبرون على اللعب كي نحيا.

نضال بعد طول تفكير مع نفسه، علم بأنه مخطئ أراد أن يعتذر من حسام لكن حسام طلب منه أن يكف عن ذلك، فالذي يجمعهما أكبر من ذلك بكثير، وسيبقيان أصدقاء للحظة الأخيرة في حياتهما.

أخذتهم الأحاديث طويلا بعد غياب أشهر، لم ينبههم إلى الوقت إلا صوت أذان الفجر ليعودوا تلك الليلة والفرح يملأ قلوبهم.

كانت الأمور تسير بشكل جيد مع شادي، فقد شكل معظم الفكرة تقريبًا، ولم يبق إلا القليل، كان ذلك بمساعدة سدين، بعد أن أطلعها حسام على موضوع الفرقة الموسيقية.

وقف حسام عند باب المحل، خطوة تأخذه إلى الأمام وأخرى تعيده إلى الخلف، دخل إليها وكان قد أجزم لها بعدم عودته ولكنه

عاد، وكالعادة لم يستطع لسانه أن يقول ما يدور داخله، بابتسامتها الرقيقة قدمت له الوردة البيضاء، خرج وهو يريد أن يفعل شيئاً، فلم يكن منه إلا أن اتصل برقم المحل فجاء صوتها الرقيق: ألو، نعم

ألو، أنا الشاب الذي كان عندك منذ قليل

نعم عرفتك

أردت أن أخبرك بأني مهتم بك جدا، فتصرفاتي الصبيانية التي أقوم بها أريد أن نقترب من بعضنا بشكل أكثر نضجا من ذلك، أريد حلا لهذا الموضوع، فأنا معجب بك فعلا

لا يوجد عندي حلول، فالحل عندك أنت فقط

إذا أعتبر الموضوع منتهي؟

نعم، هو كذلك

شكرا لك، إلى اللقاء

هذه المرة أحس فعلا أنها لا تريده، وأنها صدته بالفعل، هو الذي لم يعتد ذلك، كان غاضبًا جدًا.

بهذه الحالة ليس للأقدار دور، فهو من يرسم الطريق حتى بمشاعره اليائسة، هو يريد لهذا أن يحدث، ربما بدون تصريح خارجي من عقله، ولكن عقله الباطن المسير من مكنونه من يريد ذلك،

وحسام يملك من فطنة الفكر ما يمكنه من فهم ذلك.

هي التي لم تعلم ما الذي يحصل، ولماذا أجابت بهذه الطريقة، كلماتها التي لم تدرك ما هي، صوتها المرتجف الخائف من شيء ما، ما تعلمه أنها تحب أن تراه وتشتاق لرؤيته، بل تنتظر طلته بكل لحظة.

حسام يواظب على عمله أكثر بهذه الأيام ويحاول أن يتسلق سلم النجاح، لم يجعل شيئا يثنيه عن ذلك، علاقته بزميلته رنا لم تتعدّ حدود العمل حتى بأحاديثهم الجانبية، كأنه يخلع شخصًا على باب الشركة ويلبس شخصًا آخر، بات يصب كل تركيزه بالعمل، ذكاؤه وفطنته لهما الدور الأكبر في ذلك، يغوص بالتفاصيل ليخرج بالعناوين، ربما هذه فلسفة حياة للبعض.

أم جميل تعلم أنها لن تستطيع أن تردع طموح حسام بالعمل، أنها طيبة جدًا، بيد أن هناك ما يمنعها من محاولة إيقافه، فعلى هذا المنوال عاجلا أم آجلا سيكون حسام قد أخذ مكانها عن استحقاق.

غريب هو الحب، فهو بسيط لحد التعقيد، لا يعرف شكلًا محددًا ولا نسقًا محددًا، أسهل كلمة ينطق بها هي أحبك، ولكن عند حاجته لتلك الكلمة ليصارح بها من يحب فعلا أو أن يصارح نفسه على الأقل لا يجدها مطلقاً بل يحذفها من قاموس كلماته، ويزيح بها من معجم المشاعر.

يصعب على الإنسان أن يصارح الآخرين بما يريد ولكن الأصعب أن نستطيع أن نصارح أنفسنا بما نريد، ما يمنعنا من فهم أنفسنا وما نريده فعلا كبرياؤنا وغرورنا أو ضعفنا.

أما فتاة الورد، فلها مزاج آخر بالعمل، لا تشبه أحدًا، قد تخرجت من كلية الصيدلة ولكن دراستها لم تكن لها تأثير على رغبتها بالعمل، فمنذ صغرها أحبت الزهور وهذا حال جميع الأطفال، ولكنها علقت بذلك الزمان إلى الآن، الغريب أنها لم تدرس تخصصًا

قريباً من هذا التوجه، كان عليها أن تدرس الهندسة الزراعية مثلا، ولكنها كانت تريد أن تدرس الصيدلة وليس شيئًا آخر، أظنها غريبة الأطوار قليلاً ، أما زهورها فإنها تزرع معظمها في حديقة منزلها، كل صباح تحدّث زهورها بأسرارها.

هذا الصباح جلست بجانب زهرة فل وقالت لها بهمس : أنها وضعت طلاء أظافر على أنامل قدميها، بالعادة لا تضع شيئا من مستحضرات التجميل ولا حتى طلاء الأظافر، أراهن أنها لم تضعه على أظافر اليد لئلا يراه أحد، فيخجلها ذلك، واضع رهانا أكبر أنها وضعته احتفاءً بحسام.

وإنني بهذه اللحظة أبغض حسام، فهذه الفتاة لا تستحق سوى ملاك، وليس شيطانًا بمبررات، هذه الفتاة تستحق أن تخوض حربًا لأجلها.

عادت المياه إلى مجاريها، فاليوم هو الخميس، موعد التقائهم، طول فترة الفراق بينهم، لم يلتق أحد منهم الآخر يوم الخميس، دخل نضال وشادي لم يصل بعد، قال نضال: لو جاء البارحة لص إلى منزلك لأفرغه.

وما أدراك بذلك

جئت البارحة، لم يكن الباب مقفلا أصلاً، دخلت وكنت نائمًا كالموتى، فجلست وشاهدت فيلمًا كاملًا ثم خرجت إلى الشرفة، كل ذلك وأنت نائم.

من الجيد أن تتبع أخلاقك العالية فلم تزعجني، كنت سأحقد عليك

وما هذه، نبتة جافة أخرى؟

هذه لها قصة سأرويها لك ولكن دون أن تضحك، اتفقنا

سرد له القصة من البداية حتى الهاتف الأخير، عندها دخل شادي والثلج يغطي معطفه، وقفوا جميعا على الشرفة ليشاهدوا الثلج المتساقط، وأعادوا ذكريات الطفولة والشباب التي جمعتهم بأوقات كهذه، تعالت الضحكات حتى فرقهم بزوغ الفجر، وكانت الأرض قد اكتست لونها الأبيض الجديد.

وصل إلى العمل كانت نظرات رنا تلاحقه من زاوية لأخرى، وهذا ما يكرهه حسام، فهو لا يحب العلاقات داخل نطاق العمل، ولكنه واقع يتعايش معه، كانت الشركة قد حددت موعدًا مع شركة سياحة وسفر، وكان حسام ممثل الشركة لإبرام العقد.

دخل إلى هذه الشركة ولم يكن يعلم أن القدر قد أهداه مفتاح أحجيته، أولاً: التقى بمرح صديقة ولاء فهي موظفة استقبال في ذات الشركة، ثم دخل ليتوقف به الزمن عندما شاهد تلك الفتاة تنظر إليه وتبتسم، لم تكن نظرة عابرة بل نظرة استغراب ومعرفة، هو لم يعرفها بدايةً، ولكنه استجمع ذاكرته، نعم إنها هي، تلك التي كانت بالمطعم تلك الليلة، نعم تلك هي التي غضبت مايا بسببها وغادرت.

عاد إلى عمله وقد نجح بإبرام عقد الشركة، ووجد الحلقة المفقودة أيضاً، ولكن كان يلزمه الكثير من التفكير ليتوصل إلى نتيجة، أخذ مغادرة من العمل وذهب لرؤية شادي ليسرد له ما حدث.

شادي الذي لم يتحمس كثيراً للفكرة، وما الذي يؤكد لك أنها من قام بذلك، لو أنها فعلا هي نفسها التي كانت بالمطعم تلك الليلة.

لديها الدافع وكذلك مرح تعمل معها مما أتاح لها أن تفتح الشقة وتتبع أخباري كذلك، وابتسامتها ونظرتها اليوم، أؤكد لك ذلك، صدقني.

وسأتأكد من ذلك وعندها سأنتقم منها شر انتقام، سأجعلها تبكي دما.

حسام تأكد جيدا قبل أن تقدم على أي خطوة، لا تظلمها وتظلم مرح أيضاً، ثم أننا قد تجاوزنا الموقف على خير.

ولكن ما فعلته ليس بالأمر الهين، لن أدعها تسلم بفعلتها، كما أنها ربما تعيد الكرة مرة أخرى، لن أسمح لها بذلك.

وما الذي يجعلك متأكدًا لهذه الدرجة ؟

أنا متأكد من ذلك، ولكني سأتريث وسأثبت لك ذلك بعد عودته بنفس اليوم لعمله، كان مدير الشركة قد طلب حضور حسام لمكتبه.

مساء الخير

أهلا بك حسام، يسرني ما أسمعه عنك في العمل، فنجاحك غير مسبوق، ووجب علينا مكافأتك.

فرح حسام بذلك، وقال لا داعي لذلك انه عملي ويجب أن أجتهد لأثبت لنفسي قبل أن أثبت للشركة ذلك

ستكون زيادة على راتبك الشهري، وأعدك بأن تكون في المكان الذي يناسب قدراتك في المستقبل القريب، فاستمر باجتهادك

شكرا لك أستاذ، وأتمنى أن أكون أهلا لثقتك بي

تستطيع أن تعود لعملك الآن، بالتوفيق

كان هذا التشجيع بصيص أمل لحسام الذي لديه الكثير ليقدمه لنفسه ولعمله.

حسام لا يدري سر تعلقه بفتاة الورد تلك، إلا أنه قرر الذهاب لرؤيتها بعد كل ما حصل، يريد أن يطفئ نار الشوق داخله، لم يكن الموضوع سوى لحظات يراها خلف الزجاج الخارجي للمحل كأنه جدار فاصل لعالمين مختلفين، ليس منهم من يجد تفسيرا لهذه العلاقة الغريبة بشكلها ومضمونها، وكيف ستكون نهايتها؟ حسام يسرح بخياله وكل مرة يجد نهاية لهذه العلاقة ولكنها نهاية حزينة.

كذلك معظمنا فنحن نبحث عن أسباب الفشل قبل النجاح، نحب الحزن بل نبحث عنه، نحب أن نرسم نهايات حزينة لعلاقاتنا، علنا نرفض هذه العلاقات ولا نريد أن نستمر بها أو عل الخوف هو من يقودنا ولكننا لا نصارح أنفسنا بذلك، ربما حسام لا يريد أن يجد نهايةً سعيدةً لأنه لا يريد أن يقع تحت ضغط المسؤولية أو لأنه لا يعرف ما يمكن أن تقدم له علاقة حب جميلة، فهو يرى بأن حياته جيدة بهذا اللهو والمجون ولا يريد أن يعكر صفوها بعلاقة شفافة

كهذه، إلا أنه يرمي عن كتفيه عاتق المسؤولية حيث أنه حاول.

عراك مع الذات، تخاصم وتجاذب، خوف وأمل، تخبط وهدف، كل ذلك وأكثر ما يمر به شادي، التجهيزات الأخيرة قبل أن يعلنوا عن أول حفل لفرقتهم الموسيقية.

في هذه اللحظات نعاود النظر إلى أنفسنا، نبدأ نقد ذواتنا حد نكران الموهبة ثم بلحظة يعود لينتصب بشموخ مؤازرًا نفسه أنه سينجح لا محالة ويستدل على ذلك ببراهين، ثم يعاود الكرة.

ومع كل ذلك هذه اللحظات هي الأجمل، أن ترى خطواتك تقربك من الحلم وان يغدو الحلم حقيقة، إنه الجنون، تفيض السعادة كنهر يغسل حوافه من كل العوالق التي تجمعت مع انحساره.

وجاء الوقت الموعود فمع اكتمال فرقة شادي وتحضيراته، تقرر أن تحيي الفرقة حفلة موسيقية خاصة يوم الخميس احتفالا بإنشاء الفرقة، كانت هذه اللحظات لا توصف عند الجميع.

كانت هذه الحفلة هي الخطوة الأولى والفشل مرفوض، كان هناك إعلاميون وموسيقيون معروفون ورواد مسرح وما إلى ذلك، المستقبل أمامهم بل بين أناملهم، فكانت موهبتهم تذكرة دخول مركب النجاح.

بدأ الحفل وساد الصمت على الجميع ليتركوا المجال لأسماعهم أن تتذوق طعم الموسيقى، كانوا يعزفون أمنياتهم، وأحلامهم، وضحكاتهم ودموعهم وآلامهم، لم تكن تصدر من الآلات الموسيقية بل من قلوبهم وأرواحهم.

انتهت الحفلة لم تكن جيدة، بل كانت الجمال، كانت تشبه الكمال تركت الجميع مذهولين من روعة عزفهم ورفعة مستواهم، لم يتفوقوا على الجميع وحسب بل وعلى أنفسهم كذلك.

مضى أسبوع على الحفل، كان موعد لقائهم المعتاد، رن جرس الهاتف، أجاب حسام بصوته الثمل

الو مرحبا

مساء الخير -كان يعرف ذلك الصوت جيدًا- وضع المكالمة على السماعة الخارجية ليتسنى للجميع سماع المكالمة

أهلا، لم تتصلي منذ مده، ما الجديد هذه المرة

ليس هناك جديد إلى الآن، وبالتأكيد ستكون أول من يعلم بأي جديد

ولكن القدر قد قام بدورك هذه المرة، دون أن تجهدي نفسك أو أنه يعمل معك أيضاً، فربما لن تستطيعي إيذائي بعد الآن

هذا جيد ولكن كيف ذلك.

وهل يهمك أن أخبرك بذلك

ربما من باب الفضول، كما أنك شغلي الشاغل

سيسبقك الموت إلي فحاولي أن تنكلي بي قبل أن يسبقك - كان صوته لا يشبه شيئا سوى الصدق بمعالمه ورجفته -

يبدو أنك أثقلت من شرابك هذه المرة.

بل إنني لا أقول إلا الحقيقة، أنا مريض بالسرطان وبمرحله يستحيل فيها العلاج.

أغلقت الخط دون أن تضيف أي كلمة، كاد شادي ونضال أن يصدقاه من شدة تأثره وواقعيته، يا له من ممثل.

ثم طلب من نضال أن يكلم ولاء، واخذ الهاتف ليحادثها بنفسه ولاء كيف حالك، حسام من يتكلم، هل مرح بجانبك الآن؟

لا، لماذا؟ ما الذي حصل؟

اسمعيني إلى النهاية دون مقاطعة، ستحاول مرح أن تستفسر عني حاولي أن تجعليها هي من تحاول أن تستقي منك المعلومة، وأخبريها أني مريض سرطان وان حالتي سيئة.

هل أنت مريض بالفعل؟ ولماذا كل هذا وما الذي يجعل مرح تسألني عنك؟

سأشرح لكِ من البداية، وبدا يخبرها بما حصل.

هي الآن أحست بالذنب لما فعلت، كانت ترتجف ودموعها قد أغرقت كحل عينيها الماكرتين، أن يعتريك إحساس بأنك مظلوم أهون كثيراً من كونك ظالماً، هذا بالطبع عند القلوب التي تحمل الخير في بذرتها، كم هو قاسٍ هذا الشعور حين تدرك بأنك الجلاد.

اتصلت بمرح وهي تنتحب، تحشرجت الكلمات قبل خروجها.

الو. مرح

ما بك، لماذا تبكين هكذا، ما الذي حصل؟

هل حسام مريض بالسرطان فعلا. لماذا لم تخبريني؟

ماذا. لا ليس كذلك. لا اعلم، من أين لك بهذه المعلومة؟

تحدثت معه منذ قليل لأهدده مجدداً، كان ثملا جرى حديث

بيننا وصار يحدثني عن الموت ثم أضاف انه مريض بالسرطان، لم يكن يكذب أنا متأكدة انه صادق.

سأتحقق من الأمر، لكن اهدئي الآن.

خرجت مرح من غرفتها، وجلست بجانب ولاء التي كانت تشاهد التلفاز تنتظر قدومها.

لِمَ لم تخرجي اليوم مع نضال؟

يَجتمعون اليوم معًا نضال وحسام وشادي

لماذا هل هناك أمر ما حدث؟

لا هم بالعادة يجتمعون كل خميس معًا، واليوم هم عند حسام لأمر ما، تناسي ما قلت فهم لا يريدون إخبار أحد.

لقد أقلقتني، لن أخبر أحدًا أعدك بذلك.

حسام مريض، يقول لي نضال أنه بحالة صعبة، مريض بالسرطان.

يا له من مسكين، لا يستحق ذلك ما يزال شابا

استمرت المحادثة قليلاً ثم دخلت إلى غرفتها، عندها بعثت برسالة لنضال تخبره بما حدث.

عندها تأكدوا تماماً من شكوك حسام.

شادي مخاطبا حسام – يجب أن تفكر بروية أكثر وبدون أن تتسرع، هذه الفتاة عندما أرادت الانتقام منك تسببت بالأذى لمن هم حولك بمقدار أكبر مما سببته لك، إن كنت تريد أن ترد عليها بنفس الطريقة فإنك ستتسبب بأذية غيرها دون وجه حق، إن أخطأت هذه

الفتاة بتصرفها، فليس لك أن تعيد ما فعلت.

وهل تريد مني أن أتجاوز الموضوع ببساطة؟

نضال – أنا مع شادي يجب أن ننهي هذا الموضوع عند هذا الحد يكفي ما جرى.

حسام – سأجعلها تندم على ما فعلت، لن أستطيع أن اطوي الصفحة

شادي– سنتكلم بهذا لاحقا، دعونا من هذا الآن

حسام – أنوي شراء سيارة، دخلي قد تحسن قليلاً مع آخر علاوة كما أنني قد ادخرت بعض المال.

أول مكان وصله بسيارته الجديدة هو محل الورد، دخل المحل ينظر بمقلتيها الفرحتين وابتسامته لا تفارقه، وقبل أن ينطق بكلمة جاءه ذلك الصوت الذي يعرفه جيدًا.

يا لها من مصادفة، حسام أمامي لا اصدق ذلك.

أهلا خلود، بالفعل صدفة سارة، ماذا تفعلين هنا، هل انتقلت إلى مجال بيع الزهور بعد خطوبتك.

تقول ضاحكةً: هذه ابنة خالي وأنا هنا لزيارتها، وأنت هل جئت لتشتري الورد لإحدى حبيباتك؟!!

لم يعلم من أين جاءت، هذا ما كان ينقصه

أنا أعيش حياة هادئة ومستقيمة الآن، كما أنني مدمن على الورود البيضاء.

آه، مستقيمة، أصدق أن الشيطان يعتدل، أما أنت فلا، أصلاً هذا ما يميزك ويجملك أكثر، أين تعمل الآن؟

أعمل بشركة دعاية وإعلان كموظف علاقات عامة.

هذا جيد، ولكن حاول أن تلتزم، فأنت مستهتر جداً منذ عرفتك وأنت كذلك

كان الله بعون خطيبك

لماذا بالعكس فهو يحبني جداً، وأنا كذلك فهو متزن محب وخلوق، ليس من أحد أفضل منه

أتمنى لك حياة سعيدة، يجب أن اذهب الآن، إلى اللقاء

ألم تأتِ لأخذ الزهور، ما بك؟

لقد رأيتك وهذا يكفي.

كان متأكدًا تمامًا أنها ستقضي على فرص نجاح علاقته بكلامها هذا.

خرج ضاحكاً يندب حظه لما حصل وسيحصل، لم تتوقف خلود عن سرد قصص حسام وحياته من جميع نواحيها، لم يخطر لخلود ولو بمجرد شك أن يكون لحسام علاقة بقريبتها فكل منهما بعالم مختلف تماماً.

أما هذه الفتاة فكان قلبها يتمزق مع كل كلمة سمعتها عن حسام الذي كان يمثل طيف حب جميل بحياتها، عادت إلى البيت وكلمات خلود تجوب عقلها وتتلف ما تبقى من قلبها، فهذا الشاب الذي ظنته سيكون حبا ما هو سوى عابث لعين مثّل عليها الحب

بأسمى صورة العفوية.

لم تستطع الكتمان راحت تبوح بكل ما لديها لأزهارها المنصتة بصمت مطبق، كيف جاءها هذا الطيف الجني، دموعها التي تشابه الندى الذي استيقظ على خدود زهراتها المرتبكة، أي جنون دفع بعواطفي نحوه لم يحدث هذا مطلقاً من ذي قبل، كيف لهذا أن يحدث نسجت من الوهم أحلاماً، أقمت صرحاً على عدم أي غباء كان يقودني وما يوجعني أكثر أن هذا الطيف يحاصرني لا أريده أن يتبدد.

هي غريبة الأطوار قليلاً ولها قرارات حاسمة تتخذها خلال لحظات وكان أحدها الآن، لقد قررت إغلاق محلها وتكتفي بزهور الحديقة عالماً دون أطياف.

مرت أيام على هذه الحادثة، توقف عند باب محلها ليجده مغلقاً على غير عادة، اعتقد أنه حادث عرضي ربت على قلبه المتلهف لرؤيتها مطمئنا بأنه سيعود غداً، وكان الغد وبعد الغد ومضى أسبوعان على هذا الحال.

يود لو انه يكلم خلود يسألها عنها، لكنه يخاف إن علمت خلود بذلك أن تزيد الأمور سوءًا، فقرر التحلي بالصبر أكثر، ولكن الجيد بهذا الوضع هو إحساس حسام بمدى تعلقه بهذه الفتاة التي لا يعرف حتى اسمها، لا يعرف عنها سوى شوقه وولعه لرؤيتها.

بهذه الأثناء كان عمله يسير على أفضل حال، فقد أصبح مدير العلاقات العامة بالشركة، بدلاً من أم جميل، كان هذا تقدمًا متميزًا وسريعًا، ولكن ما يزعجه بالموضوع عدم قدرته على التأخر عن

عمله فقد أصبح مديرًا.

كل تلك الأحداث لم تثنه أن يتسمر بالتخطيط لانتقامه من تلك الفتاة، ولكن الأسوأ حدث اليوم عند علمه بأن هذه الفتاة تعاني من مشاكل نفسية، لم يدرك ما يتوجب عليه التصرف الآن، فإن صح أنها مريضة نفسية فكيف له أن يحاسبها، وكيف سيسمح لنفسه بأذية شخص بهذا الوضع، اتصل بنضال وشادي وأخبرهما بالمستجدات، وطلب من نضال أن يجد بيتًا آخر لولاء فلا يصح أن تبقى برفقة مرح بعد كل ما حدث.

شادي كان بأفضل حالاته بهذه الأيام، فرقته الموسيقية تلاقي رواجًا

مرت الأيام وصبر حسام بدأ ينفذ، كل يوم يمضي يزداد شوقا لرؤيتها، لا يطلب الكثير، فقط يريد رؤيتها، ومع ذلك فلا شيء يوقف استمراره بلهوه ونزواته التي لا تنتهي.

الجو صيفي، يجلس على شرفته يترنح على أنغام الموسيقى، والنسيم يداعب أفكاره اللا محدودة، رن جرس الهاتف. زملاؤه بعمله القديم يستعجلونه للقدوم إلى حفل زفاف خلود

حسام – ولكني لا أعلم بذلك

ولكن بطاقة دعوتك وصلتك إلى مكان عملك الجديد.

لم أرها. ولكني سآتي فورا

كانت هذه فرصته الذهبية لرؤية فتاته، من المؤكد أنها ستحضر، بدل ملابسه وخرج مسرعًا،

لم يكن له عمل سوى أن يبحث عنها وسط الحشد، لم يستطع العثور عليها، وقف مستسلماً ينتظر ظهورها، ربما لم يكن شخصًا بارزًا ولا أشهر الحضور، ولكنه كان محط أنظار الكثيرين لمشيته الثملة.

يقف متميزًا بضحكته المرتبكة، إنها هي، يا لها من لحظة تشبه الأحلام، كمن ملك الدنيا، العيون من يتكلم بالنيابة عنهما، هي لم تضع تصوراً مسبقاً لهذه اللحظة، عيناها التي اختلط بها الفرح مع حزن يتأجج نارًا.

ذهب باتجاهها وقد توقفت الساعة عن النبض كحال قلبه وقد الغي جميع من حولهما من الوجود،

صافحها، تلعثم في بداية كلامه معها، يا لها من مصادفة جميلة.

أهلا بك.. مر زمن

صحيح. لماذا أقفلتِ المحل؟

ربما أعيد فتحه مرة أخرى لا أعلم!

وإن أردت رؤيتك. كيف السبيل.

ولماذا تريد رؤيتي!

هل لي أن أراكِ غداً؟

ولكنك تراني الآن.. لماذا غداً!

أود أن أكلمك بمكان أفضل من هذا.

حسام. لست الفتاة التي تبحث عنها، لن أكون اسماً على قائمتك.

ولكني لا أعرف اسمك لأضعك على القائمة.

ولو عرفته ما الفرق. ليس هناك ما يجمعنا

إنك تثقلين علي، دعينا نعطي لأنفسنا فرصة الاقتراب

حسام أريد أن أخفف عنك، إنك وسيم ولك جاذبية وتأثير. وتستطيع أن تؤثر في أي فتاة، ولكن لست أنا.

لم تنظرين لي بهذه الطريقة والسوء، لم يبدر مني تجاهك ما يسوؤك، ربما نستطيع أن نكون أصدقاء.. ربما

أظنك مجنون ومختل حد البلادة.

هل تعلمين، نعم. يبدو أني أتوهم، من المستحيل أن أحمل مشاعر حقيقية، أنا أستطيع أن أمثلها فقط، حتى أنك تتعارضين مع أفكاري، كما قلتِ نحن مختلفان، شكراً لك.. كنت بحاجة لأعود لصوابي، ولكن تذكري بأنك لم تتركي لنا مجالاً للاستمرار.

ولماذا سأتذكر ذلك؟!

ربما لن تقوي على النسيان، وأتمنى ألّا أراكِ ثانيًا، ولكن إن التقينا وقتها ستعلمين طعم المرارة.

من تظن نفسك لأهتم بك هذا الاهتمام وأشغل بالي بك.

لن أجيبك، تعلمين وستعلمين ذلك بقرارة نفسك، وداعاً.

لست سوى مغرور.

وأنتِ شفافة كقطرة ماء بالنسبة لي.

ماذا تقصد بذلك؟

وداعاً.

خرج من الحفلة، جلس داخل السيارة ينفض غبار هذا اللقاء مع دخان سيجارته، يفكر بما حصل، هذا اللقاء الذي انتظره طويلاً، جاء وانتهى بخيبة.

هي التي أرضت غرورها إلى حد ما، ولكنها على يقين بأنها مخطئة تماماً، تعلم أن مشاعره صادقة شعرت بذلك مراراً، ولكنها سلمت مقاليد قلبها لعقلها.

هو تأكد وأجزم أن هذه الحكاية قد انتهت عند هذا الحد، وكذلك هي، لحظة وداعه أدركت النهاية.

كيف لخياراتنا أن تغير من مسارات حياتنا بهذه الصورة.

لا بد له أن يتوصل إلى قرار حاسم بهذا الشأن رغم أن النتيجة كانت محسومة، ولكن وجب عليه أن يدمر هذه الفكرة في رأسه، يقنع نفسه أن لا شيء يربطه بها وكل ما حدث كان مبالغاً فيه وضرب من أصناف الفضول، والفضول وحده من زاده اهتمامًا بهذه الفتاة.

اغتراب

عاد الشتاء باكراً ليروي قلوبًا مرهقةً وربما العقول أيضاً، قلوب لا تعلم ماهية علتها، تنتظر حدوث شيء يغير مسار هذه الحياة، أحياناً نحتاج إلى تغيير بحياتنا، فالعيش على نسق واحد وروتين مثبط يتلف الروح.

تغتالنا الأيام ونكون قد وضعنا مخططات وأهداف لأنفسنا، ولكن ليس بالضرورة أن ما تصورناه يكون صحيحا، فلكل منا موهبة وليس بالضرورة أن تكون من ضمن ما خططنا له، يتوجب علينا البحث، لو علم كل منا قدراته وطورها حتما سيصل إلى نجاحه المرجو، ولكن المعظم يعيش حياته الطويلة الفارغة دون أن يعلم ما تحب نفسه، بل يعيش بما فرضته عليه الحياة والظروف.

اليوم حفل زفاف نضال، اليوم المنتظر، لقد عانا الأمرّين وجاهدا كل ما وقف بطريقهما، واليوم هو ثمرة هذا النضال والصبر، كم جميل أن تشاطر حياتك مع من تحب إلى الأبد، أن تقاسمه شبابك وتغدو كهلا وهو ممسك بيدك، أن تهديه عمرك القادم وتعتذر عما مضى من دون وجوده.

المطر المتساقط الذي يبدو واضحا على ضوء مصباح السيارة، هو الذي يسابق حبات المطر لتصطدم بالسيارة قبل الأرض، أضواء الشارع توحي له بأنه يسير نحو النجوم، كانت السرعة جنونية كجنون فكره المبهج بتلك اللحظة تكاد تلامس الخيال.

بالحفل كان الكل يسأل عن سبب تأخره، الكل يحاول الاتصال به بلا جدوى، الجميع يدرك أن أمراً ما حدث.

قاربت الحفلة على الانتهاء، ثم جاء اتصال بهاتف نضال. إنها إدارة المستشفى تخبره أن حسامًا تعرض لحادث سيارة، أثناء حديثه بدأت الأصوات حوله تخفت عند سماعهم نضال يقول حسام، سار خطوات ويردد: حسام حسام، فجأة صرخ حسام، وراح يركض خارجا ليلحق به الجميع، انتقلت الحفلة بجميع الحضور إلى المستشفى، وقفوا جميعا خلف الزجاج الذي يفصلهم عنه، ويكتفي حسام بابتسامته التي احتفظ بها من وقت الحادث. هرع نضال وشادي إلى الطبيب حال خروجه من عند حسام، يقول الطبيب أن حسامًا دخل بغيبوبة، بهذا الوقت وصل والدا حسام بعد أن أخبرهما شادي بذلك، لقد جمع لهم القدر لقاءً، ولكنه صعب وقاسٍ على هذه الأرواح المثقلة.

أيام وأسابيع مضت وهو على نفس الحال، يأتون إليه يحدثونه بما يجول بأنفسهم، يطمئنونه عن أحوالهم ويبوحون بأسرارهم وهمومهم، والداه اللذان يتنافسان على زيارته كإثبات على حسن أبوتهم.

في وقت كالذي يمر به حسام يكون فيه العقل قد انفصل عن الجسد، بعض من هذه الحالة يحمل جمالاً لا يمكن أن تجده بمكان آخر، كيف لا وأنت تعيش تجربة الخلود، تكون الروح أقرب إلى النفس والعقل يعمل وظائفه الأقل من الروتينية فقط، يترك هذا للمشاعر مساحتها لتعيش على سجية الخالق الأولى، للمشاعر عالمها الخاص بالأصل، تجمعها صلات قربى تجاذب وتنافر، شجارات

وخلافات، ولكنها تنسجم معًا لتحدث التوازن المطلوب، ولكن بعودة ارتباط الجسد بالعقل فإن هذه المشاعر تعاني الكثير من التأثير من مزيج عقولنا وأجسادنا مع الروح، تحاول كل منها أن تطغى على الباقي فتنتج الأفعال.

نظر حوله ليجد نفسه على سرير المستشفى وأشخاص يقفون بجواره، هم بدورهم لاحظوا أنه أفاق، يسمع ضجيجهم يتحدثون أنه أفاق، ينظر إليهم ثم ينظر لنفسه غريباً، أي جحيم هذا، ثم ازداد ضجيجهم لقد أفاق، دكتور لقد أفاق، حسام حمداً لله على سلامتك، هل أنت بخير.

كلمات متداخلة متفرقة بعقله المتعب، كان مشوشاً تماماً، لم يرد عليهم بكلمة، نظر إليهم بتجهم واندهاش ثم أغمض عينيه وقد وضع يديه على رأسه.

وصل الطبيب وطلب من الجميع الخروج، مكث بعض الوقت ثم دخل طبيب آخر.

ليخرج إليهم بنبأ صادم، حسام يعاني من فقدان ذاكرة، هو الآن تحت تأثير المهدئات، سيبقى تحت المراقبة.

بدأت المناوشات بين الأم والأب أين سيقيم حسام بعد خروجه، فكل منهما يريده أن يبقى عنده، نضال وشادي يشاهدان المشاجرة بينهما، تدخل نضال.. سيبقى في بيته وسنبقى بجانبه، وفرا ذلك على نفسيكما.

وكيف لك أن تقرر ذلك؟!

شادي: حسام قرر ذلك منذ زمن ولسنا نحن.

عاد الطبيب ليخبرهم أن حسام سيمكث في المستشفى لحين استعادة عافيته ويستوعب ما حصل، ولكن عليهم أن يكونوا حذرين بالتعامل معه، بالمجمل حالته النفسية صعبة.

يجلس بغرفته ينظر إليهم بترقب، أن تستيقظ لتجد نفسك لا تعلم شيئاً من حولك ولا عن نفسك، يكاد العقل ينفجر.

عرّفوه على أنفسهم وصلتهم به، وراحوا يتحدثون معه بتردد، ينظر بوجوههم عله يذكر شيئاً، يستمع بتركيز لما يقولونه فهذه الكلمات هي ذكرياته الجديدة وتقريباً هي كل ما يعلمه الآن، صفحة بيضاء يحاول أن يضيف عليها شيئا من كلماتهم.

بدأ فصل جديد بحياته الآن، لا بل هي حياة جديدة، ولكن المشكلة أنه وقد فقد ذكرياته فإن ذكرياته لن تنساه، كيف له أن يدخل بصدام مع الواقع بكل يوم من أيام حياته المقبلة، مرت أيام وهو يعيش كمن يتخبط بالظلمة، قد نشعر بالأسى إن أضعنا شيئا له ذكرى قيمة، فكيف لمن أضاع كل شيء، كل ذكرى، كل لحظة، كيف سيكون بهذه اللحظة.

يصعب التفكير بالحاضر والمستقبل بدون ماضٍ، فالعمر كالسلسلة لا يمكن أن نفقد حلقة منها، ولكن هذا ما كان ووجب على حسام تقبل واقعه.

إنه الفراق، أصعب تجربة نمر بها في حياتنا، فراق حبيب، فراق مكان، فراق مهما كان نوعه يكون صعبا، لحظة فيها مرارة وقسوة، قد نكون من يريد الفراق وقد يكون الطرف الأخر، وربما نقول شاءت الأقدار.

مشكلة حسام أن فراقه ليس أي فراق، إنه يفارق نفسه، وأي فراق أصعب من هذا، ولحظة الفراق ستدوم طويلا، حسام عاش لحظات فراق عدة ولكن القدر كان يحضره لفراق عظيم، فراق نفسه.

هو الذي لم يؤمن بالقدر يوماً، ربما هذا سبب مشاكله في الحياة، فالقدر يريد أن يثبت له وجوده، بل وسيطرته على حياته بشكل تام، يتلاعب بها وبكل من حوله كأحجار الشطرنج، ربما تعب القدر من عناد حسام فأراد أن يمسح قاموس أفكاره، ولكن القدر أغفل أن الأفكار لا تمسح بهذه البساطة لأنها تنبع من الروح ولا تزول إلا بزوالها.

حسام الذي بدأ يبحث في طيات حياته المدونة، بنسق بيته، بطريقة لباسه، بين صوره وكتاباته، بمكتبته وموسيقاه، يبحث عن شخصيته التي بدأ يضع ملامحها.

خرج اليوم لتناول العشاء بأحد المطاعم، دخل كالعادة بخطواته الثابتة وابتسامته الساخرة من نفسه ومما يحصل له، يحسد كل شخص، ليس من يجلسون هنا، بل كل شخص لم يفارق نفسه، خطواته تقوده إلى طاولة شاغرة، وعيناها تنقل شوق روحها إليه،

جلس وهو يسال نفسه، هل جلست هنا قبل اليوم؟ هل لي ذكريات هنا؟ الناس الجالسون حولي هل عرفتهم في حياتي السابقة، الآن الأفكار تلف رأسه دون أن تتخللها أي ذكرى، ليست سوى أفكار بل أوهام، هي التي تحدق بابتسامته تريد أن تصرخ به أنا هنا، انظر إلي، نظر باتجاهها نظرة عابرة، لاحظ أنها تحدق إليه ولكنه أشاح بنظره عنها، أزاحت هي أيضاً نظرها محدثة نفسها لماذا فعل ذلك؟ لم يتجاهلني، كانت شكوكي صحيحة، لم أكن مخطئة، ما هو إلا شاب عابث يمثل الحب ويدعيه، أم أنه علم بخطبتي ولكن مهما يكن كان يتوجب عليه أن يبادلني شوقي إليه، ربما يريد أن يخفف عني هذه اللحظة، لأنه قال لي أن هذه اللحظة ستكون فيها كل المرارة ولكنه يزيد قساوتها بتصرفه، ربما لم يعرفني أصلاً فشاب مثله مرت فتيات كثيرات في حياته، ظلت الأفكار تسرح بها بعيدا عمّا يحدث بالفعل، هو الذي يجلس على بعد خطوات عن حبه الوحيد دون أن يعلم ذلك، خرج وهي ما زالت جالسة بمكانها تتلاعب بها الأفكار، لاحظها عند خروجه وهي تلاحقه بنظراتها ، فعيناها لم تستطع أن تمنعهما من توديعه، اتصل بشادي مباشرةً.

أهلا حسام

دخلت مطعما كانت هناك فتاة تلاحقني بنظراتها، ربما أكون أعرفها، سأصفها لك إن كنت تعرفها.

اسمع حسام، كانت علاقاتك لا تعد، دون أن تفقد ذاكرتك لن تستطيع تذكرهن، لا تلقي بالاً، سيحدث ذلك لك كثيراً.

حسنا إلى اللقاء، أراك غداً.

لم يستطع أن يذهب إلى البيت، أو حتى أن يذهب لأحد أصدقائه، كان يريد أن يكون وحيدا، يشاطر همومه مع كؤوسه، دخل الحانة جلس بجانب فتاة على الأغلب أنها بائعة هوى، بدأ بالشرب ولم يستطع التوقف، كلما حاول أن يعود بذاكرته إلى الخلف، يدخل في نطاق الفراغ الشاسع، يخرج من تلك اللحظات بسخطه من واقعه المؤلم، فجأة أزاح بيده الكؤوس المنتشرة على سطح البار ليرمي بها أرضاً، وخرج وهو يضع يده على رأسه سبب مشكلاته، الكل كان يتابعه بنظراته إلا هي فقد خرجت وراءه، لو سمحت هل لي بالحديث معك قليلاً؟

كان يقف متكئاً على الحائط، يشعل سيجارة، تفضلي تحدثي، ولكن دعيني أوضح لك شيئاً، أنا لا أعرفك وان كنت أعرفك بالماضي فأنا لا أذكرك.

لا، لا، أنا لا أعرفك من قبل، ولكن لاحظت مدى غضبك، وكنت أريد أن نتحدث قليلاً، فهذا سيهدئك وتستطيع أن تتكلم بما تريد فأنا لا أعرفك، والحديث لغريب سيسهل عليك.

أخذ هاتفها واتصل برقمه ليرى إن كان مخزنًا عندها ليتأكد فعلاً أنها لا تعرفه من قبل، كان هذا يشكل فرقًا بالنسبة له، كونه يرى ضعفًا، وكل شخص كان يعرفه ويعلم ما حدث له سيتعامل معه بشيء من الشفقة وهذا ما لا يريده، تأكد من أنهما لا يعرفان بعضهما من قبل، هي التي استغربت من حالته هذه وطريقته

بالتعامل، ظنت أنه من كثرة سكره ولكنها كانت متأكدة من أنه يمر بحالة نفسية سيئة جداً.

صعدت معه إلى السيارة، نظر إليها ضاحكاً، بماذا تريدين أن نتحدث فأنا لا أعرف شيئاً حتى أنني لا أعرف نفسي، لو قالوا لي أي شيء عني فليس لي خيار سوى أن اصدق، تفضلي بالحديث.

-لا أفهم ما تقصد وضح لي أكثر!

- لقد فقدت ذاكرتي منذ فترة جراء حادث، هل تتصورين معنى ذلك.

- ضحكت قليلاً ، أتمنى أن أفقد ذاكرتي لعلي أستطيع أن أستعيد نفسي.

- الكلام شيء والواقع موضوع آخر.

إن كنت فارقت نفسك، فانا أفقد روحي كل يوم مرات عديدة، سأقول لك شيئا، قد تكون حالتك صعبة ولكن لا تجعلها عقبة لحياتك، انظر حولك ستجد أنك أفضل من الكثير، والآن وجب على أن أعود إلى عملي، وداعاً.

ولكن هذا من اختيارك أليس كذلك؟!

ابتسمت بحزن لكلماته وخرجت من السيارة. عاد إلى منزله وهو مثقل بالأسئلة، والبؤس الذي بدأ يخيم على روحه وحياته، جلس مقابل نبتته الميتة، يتساءل إن كانت قد ماتت أثناء مكوثه بالمستشفى، ولكن يظهر عليها مرور زمن طويل على موتها، فما سبب احتفاظه بها والأخرى على الشرفة أيضاً فقد كانت تساقطت

حتى أغصانها، ولكنه قرر الاحتفاظ بها مجددا فهي تشبهه بعض الشيء.

هي التي لم يغب حسام عن خيالها ولكنها برؤيته اليوم اشتعلت داخلها نيران الشوق والحيرة، تنظر إلى هذا الخاتم بيدها، كيف لها أن ترتبط بشخص وقلبها معلق بطيف آخر، رغم أنها تأكدت اليوم من مخاوفها القديمة تجاه حسام، لكن قلوبنا تدق دون موافقة العقل.

يرقد بفراشه يحاول تذكر أي شيء دون جدوى، لا يعلم أن هناك قلوباً كثيرة لا تزال تدق باسمه، ليس لهن أولحسام دور بذلك، قلب المرأة يتسع للكثير ولكنه يدق من تلقاء نفسه لشخص واحد، أما هو رجل جزئية الحب، دق قلبه للجميع، وانفطر لواحدة رفضت أن تنصاع له، ويسخر منه القدر بأن يجمعه بها دون أن يدرك ذلك.

لقاؤه بشادي مساءً كشف له الستار عن الجديد القديم، علاقته بوالديه، كان شادي لا يريد أن يتصرف حسام بغير قناعاته، رغم الأمل الذي تجدد بنفسي والدي حسام، ولكن شادي قطع الطريق وأخبر حسام بكل ما حصل بالماضي وقراره بالانقطاع عنهما، حسام يسمع كلمات شادي ويتفطر عقله قبل قلبه يريد البكاء ولكن عينيه لم تسعفاه بذلك، موضع خلافه مع والديه أكبر من أن يغفر، فالله وحده من يغفر للجميع، ولكننا بشر وهناك ما لا يغتفر.

لعنة الماضي تظل تلاحقنا حتى لو نسيناها، خرج من السيارة وأقفل الباب ليلتفت إلى صوت يكلمه، كانت مايا ولكنه بالتأكيد لا يذكرها.

مر وقت طويل حسام، سررت برؤيتك

أجابها وهو يحاول ألا يظهر لها أنه لا يعرفها، وأنا أيضاً، ما هي أخبارك؟

أنا بخير بدونك، صحيح أن بعدك كان صعباً بالبداية، ولكنني أدركت أنك مجرد مرحلة بحياتي، في الحقيقة استغرقت وقتاً لأعلم ذلك

ما بك، ما الذي تقولينه؟

أقول لك الحقيقة التي لا تريد أن تواجه نفسك بها، أنت مجرد مرحلة بحياة كل فتاة عرفتها بحياتك، مرحلة وتمضي لا أكثر من ذلك

ولماذا لا تكونين أنت وكل فتاة عرفتها مرحلة بحياتي

فكرت طويلا لتصل إلى هذا التفسير الذي يرضي غرورها، رد عليها دون أن يعلم أبعاد هذه الإجابة بنفسها، نظرت إليه بحقد لتغادره دون كلمة وداع، ودون أن يعلم من تكون أصلاً.

حياة مثيرة أن يأتيك الماضي بصيغة الحاضر بدلا من انتظار المستقبل فقط، تنتظر الماضي مع المستقبل، فضول معرفة ماضيك مع شغف مستقبلك، ولكن يجب ألا نلعن ماضينا لأنه من صنع أيدينا، بل وجب أن نحبه فإن لم نستطع أن نحبه فلا نحاول تسويته بحاضرنا، لأن الحاضر سيكون ماضيًا في المستقبل، ولكن بالنسبة لحسام فالأمور معقدة بعض الشيء لأن الأزمنة متداخلة.

مهما ضاقت علينا الدنيا بمشاكلها وضغوطاتها، تأتينا لحظات ندرك بها أننا أحياء نستنشق الهواء ونحس بالأشياء، نسعد لذلك.

كيف لا ونحن فطرنا على حب الحياة، بغضنا للموت ما هو سوى نتيجة لحبنا لهذه الحياة.

صورة معلقة على جدار غرفته تجمعه بأخته وقد كتب عليها بخط حسام –وعد أن تعيشي بروحي إلى الأبد – كيف له ألّا ينساها إن كان لا يذكرها، جرده القدر من أحلامه ونفسه ووعوده أيضاً.

تضيق بنا الحياة بمشاكلها وآلامها فنتخلى عن أحلامنا وطموحاتنا وأفكارنا وينصب جل اهتمامنا على صراع العيش.

هذا المكان الهادئ بمقاعده الجلدية وموسيقاه الكلاسيكية وأضوائه الخافتة، كان مسرح لقائهما هذه المرة، ولكنها برفقة خطيبها اليوم وبعض أصدقائهما، هو يجلس وحيدا يرشف من فنجان قهوته والدخان يتصاعد من سجائره المتتابعة، كان يجلس مقابل باب المقهى يتابع خطواتها التي تقودها إلى طاولتها المقابلة، نظرتها المتفاجئة باتجاهه استغلها ليدخل عوالم الماضي الضائع ويدق ناقوس الخطر داخل هذا الرأس، مع كل نظرة يختلسها يزداد يقيناً أنها شخص مهم بالنسبة له، يحدث نفسه عن هذا الوجل الذي اعترى داخله، منذ دخولها تحول تفكيره من فلسفة النفس والعقل إلى خيالات عن اللا شيء الذي يجمعه بهذه الفتاة، هو حائر من نظراتها المسروقة تجاهه.

يد خطيبها التي تلف يدها أشعلت نيران الغيرة والغضب داخله، الغضب يشبه الشهوة لدرجة كبيرة، عندما يزول تأثيره لا

يبقى سوى النتائج التي تدفعنا لتأنيب الضمير، هم بالخروج ثم وقف عند الباب وقد التفت إلى الخلف لينظر إليها بتمعن ويطيل النظر، ثم خرج ولم يخلف وراءه سوى الدهشة وقلب يحتضر.

لحبر الذكريات ذاكرته الخاصة لا تزول بزوال الذكريات.

وصلت إلى حد الجنون ووجب علي أن أضع حدا لذلك، لا أريد أن اخسر نفسي إلى الأبد، قررت الرحيل، لا اعلم وجهتي إلى الآن، ولكن أعلم أنني سأبدأ حياةً جديدةً لا أكون فيها رهنًا للماضي ولست بحاجة لذكريات، لا تقلقوا بشأني أنا أفعل الصواب الآن.

أتمنى أن نجتمع ثانية، أحببتكم بحياتي السابقة، وأحببتكم بهذا الجحيم الحالي، كان فراق ذاكرتي هو المشكلة وأنا وجدت الحل بفراق آخر، ساحبكم وأذكركم للأبد هذا إن حافظت على ذاكرتي طبعا، سأعود إليكم بالتأكيد بعد زمن لا اعلم مقداره، لا اعلم إن كانت كلماتي تسعفني لأنقل لكم ما يجول برأسي الآن، إلى لقاء.

هو الذي لم يتخذ الهرب خيارا يوما، ولكنه اختاره هذه المرة بكل شجاعة وتصميم على المضي، صعد إلى الطائرة وترك خلفه حياته المفقودة وعينه ترقب حياة جديدة، هو الآن يبحث عن حاضر ومستقبل لا عن ماض، أي بقعة على الأرض قد تكون بيته ووطنه الجديد، لأول مرة منذً الحادثة يزول عن كاهله حمل التفكير بذكرياته المسلوبة، ليفكر بمستقبل منتظر سعادة يغلفها الحزن هذا هو حال روحه الآن، ولكنه بالتأكيد أفضل حالاً.

مع أن الحسرات كانت تملأ قلوب أصدقائه إلا انهم كانوا مدركين تماماً أن هذا خيارًا جيدًا، ولكن الفراق صعب بكل أحواله وأشكاله، تأخذنا الريح بعيدا، ربما القرار بأيدينا ولكننا مرغمون عليه،

لو عاد الزمان بحسام لكان هذا المستحيل بعينه.

شقة صغيرة بجدرانها الخاوية من المعالم، لا تحمل سوى الصمت، وهذا ما يحتاجه الآن، والعمل كمندوب مبيعات، هذه هي حدود عالمه بهذه الفترة، ولكنه بدأ يندمج مع روح المدينة التي تنبض بالأمل والحياة بإيقاعها السريع، مساءها الصاخب الصارخ بالحياة وروحه التي اشتاقت للعيش، كل ذلك أدى به إلى أن يندمج سريعا بهذه المدينة، أو انه كان بحاجة أي مكان جديد ليحبه، ولكن على وجه العموم بيروت تأسر قلب كل محب للحياة.

مستلقيا على فراشه ينظر إلى هذه الجدران التي باتت موطنه الجديد، يتأمل تكوين العدم، فالأمر بسيط من ناحية حياة صغيرة منها يصنع عالمًا صغيرًا لتمضي به الأيام، وشائك حين يحاول العودة بذاكرته إلى الفراغ والهوة الكبيرة. كمن يفكر ببداية الخط المستقيم ثم ييأس ليفكر بنهايته حالة من الجنون تلك. حتى المهدئات والأدوية لم تعد تجدي نفعا، ليتوقف عن تناولها.

صورتها لا تفارق مخيلته الخصبة، عيناها التي انغمس بها بلحظات الجنون والحقيقة الغائبة، تفصلهما المسافات وتجمعهما اللحظات، كل منهما يمثل علامة استفهام تكبر كل يوم أكثر، تجمعها

به لحظات الذكرى لتهوي بها بمنعطفات الشوق والفضول والحب الدفين، تسلسل صورته بذاكرتها من شاب يقف على أعتاب قلبها إلى محب بطيش صبياني ثم تعيش الأمل بحب من طراز راقي المعالم، ثم تنقلب الصورة إلى عابث بالقلوب يهوى العزف على أوتارها، يغيب طويلا ليعود إليها بغيرة المحب المخلص.

وها هي تنتظر أن يحمل لها المستقبل بقية الحكاية المجنونة بقدر جنونها وهي تجلس بجانب خطيبها يمثّلان الحب بأسوأ أشكال التمثيل، يرغمان على تبادل كلمات الغزل التي تنبع من أفواههما. وغفلا عن إخراجها من منابع القلب والنفس.

ذاكرة صغيرة لكنها حملت الكثير من التساؤلات ومساوئ الماضي، رافقته حتى بعد فقد ذاكرته، أعظم مرهقات النفس ألّا تستطيع التواصل مع أشخاص حتمت عليك فطرتك البشرية حبهم، رغم رفضك لهم ولكنك تحبهم، كيف لا وهم والداك، ولكن ليس باليد حيلة كانت الأخطاء اكبر من أن تغتفر، هي التي تجلس ممسكةً بصورة ولديها، أحدها تسكن نفسه السماء والآخر حيٌ بصورة ميت، يقتلها عذاب روحها كلما فكرت به، وأظن أن صورته لا تفارق عقلها، كل ما تأمله أن يقترب منها، لم يكن يوما بهذه القسوة، دموعها التي تروي تجاعيد خدها كل مساء شواهد شوقها المميت له.

حبيبة جديدة دخلت حياته، لا أعلم أيضعها على قائمته القديمة، أم تكون الأولى بقائمته الجديدة، لم يفقد ذاكرة حواسه التي

اعتادت مخالطة النساء، يحاول استرجاع ذاكرة جسده بعد أن عجز عن استرجاع ذاكرة عقله، سارة زجت بنفسها بقفص حبه الذي لم يعرف درب النهاية يوما.

أصدقاؤه يعيشون بترقب عودة الغائب، لم تفرقهم الحياة والقدر من ذي قبل ولكن هذه المرة كتب عليهم الفراق مع الكثير من القلق، غادرهم حسام دون وداع.

لملم الشتاء أوراقه مبتعدا كحال حسام، كأنه قرر الرحيل حزنًا على فراقه، هما متشابهان إلى حد ما، فكلاهما لا يملكان وطناً يملؤهما الحزن ويبعثان التفاؤل، وعلى قدر الخير والحب اللذان يحملانه قد يسببان الأذى للأخرين.

هو الذي برع بنحت اسمه بقلب كل فتاة عرفها، وها هي تملؤها الفرحة من لحظات عشقية تعيشها، يأسر قلبها وعقلها بأفكاره التي تعبر إلى أعماق النفس، ليبني لنفسه بيتاً داخل روحها.

لم يتطلب منه الأمر كثيرًا من الوقت لينال ترقية بالعمل، فهذه الشركة صغيرة وأصبح على علاقة طيبة مع صاحب الشركة جلال، هو يستحق ذلك وأكثر لطالما آمن بقدراته ولا يحتاج ليعرف ذلك من ذاكرته فهذه الأحاسيس مزروعة داخل عقلنا الباطن، ربما لاحظ ذلك من كتاباته المبعثرة على دفاتره القديمة، ولكن ما لفت انتباهه أكثر هو مقدار التناقض بأفكاره، ولكنه لم يكتشف الجديد فقد كان يعلم بذلك عند كتابته لها.

بصلابة روحه وحبه للحياة يحاول أن يرسم لنفسه حياة جميلة على لوحة الغربة الأليمة، فمسألة سفره ليست غربة بالنسبة له فكل الأرض سواء، وإنما غربة أفكار وذكريات ومشاعر، كغريق يصارع الأمواج والمسافة والتعب وأنفاسه المثقلة وصوت بداخله يطلب منه الاستسلام.

شهور مضت على علاقته بسارة كانت كفيلة بتتويج نفسه أميراً على عرش قلبها، كانت تعلم جيدا بأن علاقتها به بلا نهاية ولكنها رفضت ذلك بكل جوارحها، وحاولت الحفاظ عليها مهما كلف الأمر.

لم تتصور بقية حياتها بدونه، هو من أعطى لفصول حياتها الألوان، رغم أن حياته الجديدة قد حملت فتيات غيرها، إلا أنها كانت الأقرب إليه، ربما ضعفها وانهزامها ما كان يشدها إليه، يخشى عليها من نفسه بحيث أن مسألة فراقه لها باتت من أولويات حياته بل تكاد أسعد مناسبة، يريد أن يزيل هذا العبء عن كاهله، رغم أن الفراق لن يكون سهلا إلا انه كان يظن أن هذا في صالحها، طريق حياتها الذي سد بسبب هذا الحب الكاذب، كلماتها ومشاعرها تجاهه تحرقه كلما حاول أن يقرب إليها صورة الفراق، وصل بها الحب حد اللا عودة فرسمت علاقتهما طريق حب الأبدية، تدرك أن مقدار حبه لها لا يساوي شيئا مقارنة بحبها.

في هذه الأثناء كان الجانب المهني يسير بشكل ممتاز، يخطط الآن ليصبح شريكاً في الشركة التي يعمل بها، مع كل هذا الصخب

الذي يرافق حياته لا تزال أطياف الماضي القريب البعيد تشده داخل ذكرى نظرة وملامح وجه لا يستطيع كتمانه أو نسيانه، ولكنه يحتم على نفسه نسيانه، هذا الوجه لم يكن أفضل حالاً منه، فهي تكابد الأيام والساعات مع اقتراب حفل زفافها وكأنها مغيبة تماما، تذكر يوم وافقت على هذا الزواج وصورة حسام المهتزة، تتمنى في داخلها أن يعود هذا الغريب لتلاحق هذا الجنون الذي مضى، ودون النظر إلى العواقب.

سارة التي تمضي الساعات بالبكاء كلما لاح لها أن حسام سيفارقها يوما ما، تحاول أحيانًا أن تخفف من حدة حبها له ولكن دون جدوى، لا تدري إلى أين سيكون المفر من هذا الحب الذي لا يرضخ لأي ضغوط من أي طرف كان، كل الذي تدركه أنها تريد هذا الحب تريد قربه مهما كلفها الأمر، لم تتذوق طعم الحياة ولذتها سوى بقربه، وها هي تتذوق أقسى أنواع عذاب الروح بكلماته التي تلوح بفراق محتمل، يغطيه ويبرره بذرائع لا تقنع عقلاً يقوده القلب.

يحاول أن يشغل معظم وقته بالعمل والكثير من العلاقات والخيانات، لا يريد أن يخلو مع نفسه، فكلما حدث ذلك دخل بصراع مع أفكاره التي تغتال بعضها البعض، ليس هناك صديق حميم يستطيع أن يبوح له بما تفيض روحه، يقول لنفسه لقد تخليت عنهم يوم سفر، لم يكن الأمر سهلا، ربما لم يدرك حجم العلاقة التي تجمعهم معًا، ولكنه يعلم أنها كبيرة لدرجة هذا الألم الذي يحسه الآن، فهم يعلمون أدق تفاصيل حياته وأكثرها كتماناً، هم أيضاً

يفتقدون الكثير ليس صديقاً فقط وإنما جزءًا محركًا من حياتهم، تخنقهم العبرات كلما ذكروه بحديثهم أو داخلهم، هم لا يذكرونه فقط وإنما لا يستطيعون أن يتوقفوا عن ذلك القلق لا يزال شريك أفكارهم ،فحسام غادرهم وهو بأصعب حالاته.

لحظه فصلتها عن الواقع توقفت معها عقارب الساعة، تلبس ثوبها الأبيض وشريك عمرها القادم جانبها، والحشد الذي تصنع الفرح والابتسامة، صوت الموسيقى الذي يطغى على دقات القلوب اللاهثة، صورة حسام تتردد على فكرها المشتت، يوقف هذه اللحظة المجنونة لمسة يده، تنظر إلى وجهه وقد عادت عقارب الساعة للدوران، كلماته التي لا تسمعها جيدا من تأثير هذه اللحظة ترى شفتيه التي تقول لها احبك يعلوها عنوان الزيف، لتبادله كلمته مع ابتسامة عريضة، تكمن المهزلة أن كليهما يعلم عدم وجود الحب بهذه العلاقة، ولكن هكذا تسير الأمور، هو زواج مثالي للطرفين، هو خالٍ من العيوب، شاب يقاربها بالسن وحسن الوجه وحالة مادية ميسورة وأسرة جيدة والأهم ليس له علاقات نسائية، ويتصنع الحب جيدا، وكذلك الحال معها، سيبحران ونبحر بقارب الوقت، الخاسر الوحيد من لا يضيف شيئاً جديدا لحياته مع كل إشراقة شمس، الأيام والأحداث المتشابهة ستحذف من كتاب رحلتنا، كل يوم يمضي بنا أو نمضي به على حد سواء محسوب من جدار الزمن المحيط بأرواحنا.

عاد الشتاء بشموخ عزه وكبريائه، عاد ليوقظ ذكريات عام مضى ويدق أجراس عام جديد، حسام قطع شوطاً كبيراً بحياته المهنية فقد كان له ما رسم، هو الآن شريك بالشركة، والعمل يسير جيداً، هذا مهم جدا بالنسبة له.

لم يدرك حسام استمرار علاقته مع سارة لهذا المدى وهذا الوقت، وتحت أي مسمى يستطيع أن يسطرها، هو لا يريد ذلك إلى حد ما، حاول كثيراً التملص من هذا الثقل إلا أنها أقفلت بوجهه الطرق، هو أيضاً أحبها إلى حد ما، ربما أنه تعود عليها كثيرًا فكان عادةً أكثر من كونه حباً، ولكنه لا يريد أن تزيد حمى الحب بها أكثر ويكون فراقه بعدها ضربة تكاد تكون القاضية.

سارة لا تريد أن تفكر بالمستقبل ما يهمها هو اللحظة التي تعيشها لأن هذه اللحظة هي ما يحمل لها السعادة، لا المستقبل الذي يحمل لها باقة شوك الفراق.

يبدو أنه حان الوقت لزيارة الوطن بعد غياب مستمر، لم يكن شيئًا يربطه بالوطن سوى حنينه إليه وأحضان الأصدقاء ورغبة داخلية غير معلنة لرؤية فتاة تعيش في ثنايا القلب، ارتعاشة غريبة واختلاف بطعم الأنفاس لحظة وصوله أرض الوطن، زجاج سيارة الأجرة هو الذي يفصل حبات المطر المتساقطة من ملامسة وجهه، رغم أنه لا يذكر كثيراً معالم المكان إلا أنه يشعر بألفته، يرسم بمخيلته لحظة لقائه مع أصدقائه، يصعد الأدراج لعدم قدرته انتظار المصعد، الطابق الثاني هو مبتغاه، يدق الباب فيسمع تلك الأصوات

التي يعرفها جيدا، فتح نضال الباب ولحظات من الدهشة تسيطر عليه ودموعه تسبق كلماته وأحضانه لصديقه الهائم، خرجوا جميعا بلحظات لهفة عندما سمعوا صوت حسام، شادي الذي أطبق على حسام بالأحضان والضحكات المجنونة، ولاء وليلى تغمرهما السعادة، بتلك اللحظة أحس حسام بأنه فاته الكثير بغيابه عن أصدقائه، بين كل جملة وأخرى كانت الضحكات اللا واعية تخرج منهم كلما نظروا إلى بعضهم البعض.

حسام: لن تصدقوا أنني أملك شركة بشكل جزئي الآن والأمور تسير بشكل جيد وبتقدم مستمر.

شادي: يبدو أنك عرفت طريقك أخيرًا، أو بالأحرى استطعت أن تجد فرصتك، كلنا واثقون من أنك ستنجح فشخص بمثل تصميمك لا بد له من تذوق طعم النجاح.

نضال: وهل ما يزال قلبك ملكية جماعية أم أن هناك تغييرًا على ذلك

حسام: يبدو أنى مفطور على حب النساء

حسام: جميل أن تجد نفسك ولدت من جديد، بحياة جديدة بتجربة جديدة، اللحظة التي قررت بها أن أسافر لشدة الضيق الذي أصابني كنت أظن أن هذه نهاية العالم، ولكنني الآن أتذكر تلك اللحظات على أنها لحظات ساذجة.

شادي: لذلك تسمى لحظة لأنها مفصولة عن باقي الأزمنة المجاورة، تحمل أحاسيس وأفكارًا مختلفة وغير ذلك فأوقات المحن

لا نحس بوطأتها سوى بوقتها وبعد ذلك ربما نضحك عليها عند تذكرها.

نضال: وماذا الآن، ألا تنوي العودة تماماً؟

حسام: في الوقت الحالي لا أظن ذلك، لا أستطيع أن أترك ما حققته ورائي.

نضال: أنت لا تعلم صعوبة بعدك، والأوقات التي كانت تحرقنا عليك بالوقت الذي قد تكون أنت تلهو فيه.

حسام: يبدو أن الشمس قد أشرقت ونحن لا ندرك الوقت، ما رأيكم أن يعود كل إلى بيته لننام ونلتقي عصراً.

شادي: نعم، لأنه يجب أن ننام كي نستطيع أن نسهر غداً، ستعود معي حسام أليس كذلك؟

حسام: لالا، سأعود لبيتي أنام هناك ونلتقي بعد ذلك ولكن ستوصلني.

في اليوم التالي كانت ألبومات الصور القديمة هي مصدر الضحكات التي تكتم بداخلها الآهات والآهات، فكل صورة كان شادي أو نضال يعلقا عليها لحسام عن وقت الصورة ومناسبتها، الجميل بالصور أنها توقف الزمن في لحظة لتؤرخها للزمن البعيد، أشرطة الفيديو كان لها دور بهذه الأمسية، من بين لقطات الفيديو، تلك اللقطة والتي تعود لبضعة أعوام سابقة وحسام كان يتحدث فيها بكلمات أجدها مؤثرة وجميلة «تغرينا التجربة فنتورط بها، فنعشق الحلم فنعيشه، يسيطر على عقولنا ووجداننا، فيلغي كل شيء

سواه، فنجد أنفسنا بين خيارين، الحياة أو الموت ونحن أحياء».

شادي: ما رأيكم بذلك؟ هل وصلنا إلى أحلامنا هل نحن أحياء أم أموات أحياء.

نضال: لا أعلم ولكن معظم ما حلمنا به وصلنا إليه تقريباً، ليس بشكل تام ولكنه يقترب.

حسام: بصراحة كان بودي أن أشارككم بهذا الجواب، ولكني لا أعرف سوى أنني أشعر أن حياتي ينقصها الكثير، ينقصها أن تفرح روحي، أما بالنسبة لأحلامي فأنا فقدتها مع باقي ذكرياتي الملقاة ولم يبق منها سوى حلم العيش بدون ألم يمزق الوجدان وقد أدعي بأنني على ما يرام ولكنني لست كذلك، لا أشعر بطعم الأيام، أراها تمضي يوما تلو الآخر، أريد أن أجد طريق سعادتي ذلك ما أريده فقط.

أحاول أن اسرق السعادة من خلال أي لحظة محزنة أو مفرحة بأي شكل أحاول تذوقها ولو بشكل كاذب، فربما تنقلب الحقيقة.

شادي: لن أنصحك بشيء حسام، لأنني أعلم أنك قادر على عمل أي شيء بل واقوى من كل الصعوبات، ستكون على ما يرام.

حسام: آمل ذلك، ولكن ما أعلمه أن هذين اليومين هما اسعد أيام حياتي التي تحملها ذاكرة نفسي، ويقتلني الخوف كلما تذكرت أن علي العودة غداً إلى بيروت.

ليلى: ألن تدعونا لزيارتك؟

حسام: بالطبع وسأسعد لذلك

ولاء: لا أريد أن أدخلك بمواضيع قد تكون صعبة قليلاً ولكن كيف استطعت أن تغيب كل هذه الفترة دون أن تطل أو تأتي زيارة لنطمئن عليك؟

حسام: يصعب شرح ذلك، ولكن بالمجمل كان ذلك أفضل خياراتي المتاحة.

نضال: لقد فعلت الصواب، تجاوزت محنةً قد تدمر حياة أي شخص يمر بوضع كوضعك.

كان هذا آخر مساء له بالأردن، غداً مساءً سيعود إلى بيروت، ولكنه ينتظر من قدره أن ينظر إليه بعين الشفقة ويرتب له موعداً لحب مهمل، كل ما يريده نظرة تطفئ نيران الشوق التي تتوقده، ينظر إلى جوانب الطريق، ذلك المقهى الذي جمعهما داخله ينظر إلى الجالسين، ينظر إلى الطاولة التي تسمر خلفها وهو ينظر إلى عينيها ولكن دون جدوى، يخرج من ذكرياته الممزقة وهو يعلم أنه يطلب المستحيل. ما هي إلا ساعات ليغادر الغربة إلى غربة أخرى.

سارة كانت تنتظر عودة حسام بفارغ الصبر، ودت مرافقته ولكنه رفض ذلك، هي لا تعلم أنه عانى من فقدان ذاكرة، كذلك لا تعلم سوى ما يريد لها أن تعرف، هذا هو طبعه مع الجميع فدائماً هناك ما يخفيه، فور وصوله اتصل بسارة يعلمها بذلك، وأخبرته بأنها ستأتي بعد ساعات، بأحضانه الدافئة استقبلها، أخذت تغازله كطفلة صغيرة.

ألن يأتي اليوم الذي أنتظرك فيه بالبيت، أقصد بيتنا

تعلمين جيداً، أننا قد ألغينا هذا الاحتمال من قبل، وتعلمين أيضاً أن هذا الموضوع سيقودنا إلى حديث لا تطيقين سماعه.

ولكن، تستحق علاقتنا أن نتوجها بزواج يربطنا معاً، شبح الفراق يقتلني كلما فكرت بك

أرجوك توقفي عن هذا الحديث، لا أريد أن أخوض بموضوع تكون نهايته دموعك

إن كنا نستطيع أن نعيش بسعادة، فلماذا نحرم أنفسنا من ذلك؟

هذه السعادة بالنسبة لك فقط، أما أنا فلا أستطيع ذلك، ليس لي قدرة أن أكون مرتبطا أو ملزما بشيء.

دموعها بلون أسود من آثار الكحل بعينيها أخذت ترسم لوحة الحزن المفرط على وجهها، احتضنها بين ذراعيه يمسح دموعها التي تحرق قلبه الزائف.

أنا لا استحق دموعك التي تذرفين، أنا أسوأ من الصورة التي ترينني بها، أرجوك كفاك وكفاني، أنت تعذبينني بجحيم الضمير وتعذبين نفسك بحب لن يرى السعادة التي تصورتها له، هنا تنتهي حكايتنا، سيكون هذا لقاءنا الأخير.

هل تحمل قلباً أم صخراً بجوفك، لا تنفك تقتلني بكلماتك، لن أسامحك على كل لحظة أسىً تسببت بها لي، أشك بكونك بشر.

خرجت وقلبها ينزف كحال عينيها وعقلها الذي ينزف أفكارًا متضاربة، هو لا يعلم ما الذي حصل للتو، لماذا قتلها

بكلماته إن كان يخاف عليها كما يدعي لم يصدمها؟ كل هذه الأيام وهو ينتظر لأن يحين الوقت ليفارقها، كيف جاء الموضوع دفعة واحدة، وهو يعلم أن هذا أضعاف الموت بالنسبة لها.

قلبها الذي يحمل جمرة العشق بين ثناياه ينقله إلى كل أنحاء جسمها مع كل قطرة دم تنزف بشراييها، هو من سيطرده خارجاً ولكن سيكلفها ذلك الكثير، فهذا الحب المتدفق بدمائها يخرج من أوردتها دون عودة، أختها التي بدأت بالعويل عند رؤيتها ملقاة على سريرها تسبح بدمائها، مع كل قطرة دم تتدفق ترى صورته برأسها الذي يصارع الموت كلماته ما يسيطر على مسامعها بهذه اللحظة.

ترى هل يستحق الحب كل هذه المشاعر والتضحيات، ما الذي يدفعنا إلى هذا الشغف المجنون بالحب وحبكته المعقدة، قررت التنازل عن حياتها، ما قد يناضل الشخص لأجله بكل ما يملك، قدمته بكل بساطة لتهرب من شبح الحب الذي يسيطر عليها.

كان الموت رحيما معها، أو أنه أشفق على هذه الروح وغفر لها ذنبها وسمح لها أن تحيا، وربما قدرها ما زال يحمل لها المزيد ولم يفرغ ما بجعبته بعد، قد تكون رحمة الأقدار على حسام الذي يزعم أنه لا يطيق أن يتسبب بالأذى للأخرين مهما كان مقداره أو شكله، فكيف سيكون حاله إثر حادث كهذا، سيكون الجحيم أرحم عليه من نفسه.

لحظات مجنونة ألمت به بحجرات تأنيب الضمير الصامتة يعلوها صوت جدرانها المسمومة، كلما لامست أفكاره قتلته، تجلده

أسواط ظلمه، تجلده مشاعره، هذا أسوأ أيام حياته، كيف السبيل إلى الخلاص من هذا العذاب، كيف يكون التكفير عن الخطيئة، لن يكون الموت حلاً بالنسبة له.

أيام من العزلة التامة، دائماً يهرب إلى عزلته بهذه المواقف، أيام من الاحتضار أيام من الموت المتتالي، يريد أن يجد طريقاً للخلاص من بين قضبان الجحيم، لم تعد روحه تحتمل المزيد.

وصل إلى باب غرفتها يحمل باقة من الزهور وخاتم الخلاص خاتم الخطوبة، نزل من برجه العالي بكل أسى، لا يريد سوى الخلاص.

سارة: اخرج من هنا، ما الذي أتى بك.

اهدئي قليلاً واسمعيني، جئت لأسوي الأمور، هل تقبلين الزواج بي. – قالها مبتسماً وكأنه قدم لها الدنيا بهذه الجملة –

اخرج، لا أريد أن أراك، من تظن نفسك، كفاك ما فعلته بي إلى حد الآن. إني أبغضك وأشفق عليك.

خرج مصدوما ولكنه كان فرحا بأنها على ما يرام، ما الذي كان يفكر به بفعلته هذه، كيف جردها من عزة نفسها بتفكيره، أيكون الحل بنظره أن يقتلها مرة أخرى، ربما يريد أن يكفر عن ذنبه معها ولكن بالواقع هناك بعض الأمور لا يشفيها سوى الزمن، وحسام يدرك ذلك حق الإدراك.

مع كل الأسى الذي تسببه لنا الحياة، فهي أيضًا كفيلة بزواله، سيكون هناك خسائر ولكن رغم ذلك هناك مكاسب، فنحن نحتاج

إلى صفعة لتوقظنا، كادت هذه الصفعة أن تكون قاتلة، ولكنها أفاقت وسيضمد الزمن جراحاً تنزف وسيحين الوقت لتلتئم.

سارة لا تعلم ماهية الإحساس الذي تحمله تجاه حسام الآن، أيكون حبًا مقتولاً، أم كرهًا يتأجج أو تشفق عليه، تذكر هذه الحادثة بكل تفاصيلها وتضعها بروازًا عريضًا لحياتها، إن كان للإنسان أن يستفيد من أخطائه، فيجب على سارة أن تشكر القدر على أنفاسها أولاً.

حسام يظن شخصيًا أنه يعاني أكثر منها، وهذا خطأ فادحٌ بفكره، فليس هناك من يحس بالألم أكثر ممن تعرض له، هي من قاست صده وتقلباته، تكبره وفرض مستقبل الفراق عليها، جردها من جمال مشاعرها، قسى عليها بكلامه، حطم أبنية وجدانها ثم جاءها ليضيف إلى ذلك شعور الشفقة المسموم، وما أصعب قتل المقتول!

حسام الذي يملك قلبًا كقلوب الأطفال، ولكنه من طينة الأحجار، ليس الزمن من يضمد جراحه؛ ولكنها أفكاره من تفعل ذلك، يجد لنفسه سبل تبرئته؛ ليستطيع المضي قدمًا، ولكن إلى أين يمضي؟ إلى أزمة أخرى، ربما اعتاد على ذلك.

يمضي الصيف سريعًا، كأنه يعلم بأنه لن يحمل الجديد لحسام؛ فأراد أن يوصله لشواطئ الشتاء المتقلبة، منهمكا بالعمل، محققا نجاحات كبيرة، ربما سبب هذا النجاح حس المغامرة داخله، عله لم يعد يخشى شيئا، لم يضع الخسارة في حساباته، من يضع الفشل بين

خياراته سيفشل لا محالة.

يقال: إن البعد يخلق الجفاء. مكالمات قليلة تجمعه بأصدقائه بالأردن، ولكن هذا لا يلغي مقدار الحب الذي يجمعهم، وأما فتاة الورد فهي صورة تلاحق ذاكرته، بالأحرى هو من يلاحق هذه الصورة بداخله، هي تعيش أياماً متشابهة لم تعد تملك تلك الزهور بحديقتها، هذه الزهور هي ملح حياتها، بائسة هي الحياة بهذا البرود.

اليوم كان مختلفًا، عيناها التي تشتعل شوقًا وغرابةً، من أين خرجت لي هذه المرة؟ إنس أم جانّ أم تراك من صنع القدر؟، قلبها ينبض فرحًا رغم أن وجهها لم يبح بالكثير، لماذا جئت الآن؟ لتشعل نيران الندم على ما اقترفته بحق نفسي، أعلم أن هذا اختياري لكني أرجوك دعني أمضي بهذا الموت البطيء، زوجها لا يزال يذكر هذا الوجه ويذكر نظرتها في ذلك الوقت ويراها الآن.

لم يلاحظها إلى الآن، دخل وقد ابتسم للنادل، جلس على الطاولة برفقة جلال شريكه بالعمل، نظر تجاهها ثم أشاح بنظره، يريد أن يطابق هذا الوجه بالصورة المحفوظة بعقله، عاود الكرة هذه المرة ولكن بتمعن أكبر، بدا مشوشًا كثيرًا، جلال لاحظ ذلك، لم تكن جمله مترابطة، كان الحديث لا يحمل أي ملامح أو شكل، يعاود النظر بلهفة؛ يريد أن يأخذ قدر المستطاع من الذكريات، زادت شهيته للشرب أكثر بدأ يشرب بسرعة، نبرة صوته اختلفت كثيرًا، جلال لا يعجبه حال حسام على هذا الوضع – خصوصًا – عندما علا صوت حسام بجمل غير مفهومة، وكلمات مبعثرة، طلب

منه جلال أن يخرجا، أعين الناس بدأت تلاحق طاولتهما، مع إصرار جلال وقف حسام بصعوبة ليخرجا وعيناه محدقة بها.

زوجها الذي بدأت الشكوك والوساوس تسيطر عليه، هي لا تعلم بماذا ستخبره فهي فعليًا لا تستطيع أن تضع حسام بأي مسمى بحياتها ولا تستطيع أن تنكره أو تنكر وجوده حتى بداخلها، الحاضر من يشعل نيران الماضي، هذا الحب الذي لم يكبر بالسابق ها هو يعود إليها ليقول لها نعم كنت بين أيديكما وأضعتماني، أضعتما حبًا صادقًا، وحقيقيًا، ليس به زيف، ولكن كل ما كان ينقصه الشجاعة، وعدم الانقياد للعقل، ينقصه رفيقه الجنون، ولكن الماضي لن يعود إليك سيدتي، وفتى الأحلام الذي بدأتِ تدركينه الآن ليس بمتناولك، وآه لو تعلمين أنه لا يعلم من تكونين بالأصل!

جلال لم يدخل بتفاصيل ما حدث مع حسام، اكتفى بمرافقته للمنزل وترك له حرية الاختيار بالبوح أو الكتمان.

خرج وخلّف وراءه تساؤلات، وهواجس، تلك الفتاة التي عاد بها الماضي، ما يقلقها كيف لعلاقة لم تبدأ بالأصل أن تمتد بها لهذا الوقت، وكيف لها أن تأسر أنفاسها وتحرك مشاعرها بعد أن تجمدت، هذا ما يدعوها للتفكير عن ماهية هذه العلاقة وحجمها لو حدثت.

غريبة هي الحياة، وتقلباتها، وأحداثها غير المتوقعة، وصدفها التي تكاد تكون مرتبة، وكأننا نعيش على خشبة مسرح كبير، أحداث صغيرة نمر بها، لا نلقي لها بالاً، ما تلبث أن تكون محركًا أساسيًا

لمجمل حياتنا، لم يترك الفتاة فقط لهذه الحيرة ولكن زوجها أيضاً بدأ يعيش صراع الشك، وتكمن صعوبة هذا الشك كونه لم يسألها عما حدث هذه الليلة أو ما سبق ولكنه سيبقى دفين نفسه ليعيث بها فسادًا، خصوصًا أنها من طلبت منه أن تكون وجهتهما بيروت برحلتهما هذه وبهذا الوقت تحديدًا.

الشك هو فتيل النهايات، طريق إلى التخبط بالقرارات ورسم صور مغايرة للواقع، هو نقطة التلاقي بين الصدق، والكذب، بين الإخلاص والخيانة، باختصار هو الحد الفاصل بين جميع الأضداد.

بين تارةٍ وأخرى تريد أن تكلم زوجها بما حدث، ولكنها تتراجع؛ لأنها بهذه الحالة ستزيد الأمور سوءًا كونه لم يسألها عن شيء، على الرغم من عينيه التي تبوح بكل شكوكه، ليست عيناه فقط، ولكن تعامله، وطريقة كلامه التي بدأت تحمل شيئًا بين طياتها.

بدأ يربكها ما يحدث من زوجها، وكأنها مذنبة، ومدانة – مع وقف التنفيذ – ولكن إلى متى يستطيع أن يكتم هذا الشك؟ والى أين سيوصله؟ والى أي مدى ستصل خيوط تفكيره المتعبة من سموم الشك؟

لم يكن الشك رفيق زوجها فقط، بل بدأ يساورها عن حسام، ربما أعراض إحساس دفين تجاهه بدأت تظهر على السطح، أو أنها كانت ظاهرة داخل نفسها لكن ليس بهذا الحجم، تداخلت بين ثناياها الأحاسيس، ما يقلقها هو مقدار السعادة التي تغمر نفسها عند رؤيته، لا تريد أن تقنع نفسها بهذه السعادة ولا بشوقها لرؤيته،

تقف أمام مرآتها؛ علها تبوح بما يستكين بنفسها، ابتسمت وابتسم قلبها عندما خطر لها أن حسامًا متعلق بهذا الوجه، يفكر بها لم ينسها، لم يثنه البعد، حتى زواجها لم يدفن حبه لها.

تتأرجح بنا أحاسيسنا تنقلنا، إلى سحب السعادة ثم تهوي بنا إلى جحيم الشك، والواقع، تبًا لعقولنا التي لم تستطع أن تكشف هذه الشيفرة، كأن القدر يقول لنا ساخرًا ها هي سعادتكم، خذوها إنها بين أيديكم، ولكننا لا نستطيع الإمساك سوى بخيوط العدم.

حسام الذي يتخبط بحياته، لم يغير عادته، وكأنه يهوى هذا التأرجح، ليس له عنوان ثابت ليس له فكر ثابت، ولا موقف ثابت، يبرر هذا التخبط بتقلبات حياة، وتناقضات فكر، أحيانًا نشعر أن أعظم إحساس نبحث عنه هو السعادة، وأظن أنه مع مرور الوقت ندرك أنها أبسط من أن نبحث عنها.

هو الآن كشاعر انقطع عنه الإلهام وعاد ليكتب بقلم فارغ، بين تنميق الكلمات والقافية يقتل الشاعر حكاية، وعلى زاوية انعدام الرؤيا بحياتنا يموت حب منهزم وشخص يحترق، تُقتل أحلام، ويُهدم نسيج خيالٍ ليالٍ طوال.

تربطه علاقة صداقه قوية بشريكه بالعمل جلال، على الرغم من أن جلال بعقده الخامس من العمر، جلال له شخصية وقورة، لا تستطيع إلا أن تصغي لحديثه، وأقواله، له ملكة الحضور القوي، صوته الأجش، وبنيانه الضخم، وهندامه الذي ينم عن شخصية صاحبة نفوذ، كل ذلك جعل منه شخصيةً فريدة.

هو يعلم كل شيء بخصوص حسام تقريباً، أو بالأحرى كل ما يعلمه حسام عن نفسه، أحب حسام كثيراً، وخصوصا كونه لم يرزق بمولود ذكر فهو أبٌ لخمسة بنات، ولكون حسام قد ابتعد عن أية علاقات نسائية من أي نوع فكان لهما كل الوقت معًا، كما أن جلالًا مغرم بأحاديث العمل، والسياسة، وحتى التاريخ.

يخاطب جلال حسامًا ممازحًا: الجميل بالموضوع أنه منذ قدمت إلى لبنان، وها هم معظم الرؤساء العرب وغيرهم يتوافدون، عام ٢٠١٠ غريب الأطوار.

حسام لا يخوض بالسياسة كثيرًا، ولا يهمه ما يحصل على الكوكب، فهو يرى أن عالمه هو ما يمسه بشكل مباشر، وهذا حال الكثيرين، ولكنه بات مولعًا بالشيشة كثيرًا.

يقول حسام: إن ما يميز الشيشة، وما يحبه فيها هو كمية الدخان الذي يأخذه منها.

عاد حسام إلى منزله مساءً، وما يميز بيت حسام الآن تحديدًا، أنه لا يحتوي على نبتته الميتة، والأمر الآخر أنه خاوٍ من الذكريات، والحنين، لا يحمل سوى الهجر، والبعد، يشاهد فيلمًا على التلفاز، ويضحك معه، ثم ينظر حوله ليجد نفسه وحيدًا، فيبتلع الضحكة، ويسوده بؤسٌ مؤقت.

أما فتاة الورد؛ فقد حزمت أمرها، ودون مقدمات، إن لها عقلاً يأخذ القرارات بسرعة البرق، ليست القرارات البسيطة وحسب، وإنما المصيرية أيضًا، في أول يوم عادا فيه إلى الأردن، دخلت برفقة

زوجها المنزل، حضرت قهوتها الحلوة المذاق، وجلست في الجهة المقابلة لزوجها، قالت له ودون تفكير، أو نقاش مسبق: أريد أن ننفصل، وصمتت، وهي ترشف قهوتها بهدوء وكأنها الفجر.

نظر إلى السقف، ثم إلى الأرض، وأطال النظر، وقال لها: موافق، لك ذلك، وكأنهما قد رتبا ذلك مسبقًا، كيف لهما ذلك، لم يدم زواجهما بضعة شهور، ربما قد فعلا الصواب، فالشك كان سيقتلهما ببطء، هو لا يعلم ماهية مشاعره الآن، أو إلى ماذا تؤول، ولكنه أحس بثقل قد انزاح عن عاتقه، وهي التي عادت إلى أزهارها ثانيةً، أقبلت عليها بنهم تحدثها بكل ما يجول بخاطرها، وتطلب منها الصفح على بعدها، إن لها ابتسامة تشابه إشعاع شروق الشمس، تفكر به الآن، لم تبح لزهراتها بذلك؛ لأنها خجلة ولكنها تمهد للبوح.

يحدث أن يأتينا أمل، وسعادة دون أن نعلم مصدرهما؛ فهي الآن مقبلة على الحياة كطفلة صغيرة، عادت لتفتح محلها ثانية، ولترسم طيف حسام من جديد كأنها أقرّت بهذا الطيف، وها هي الآن بانتظاره، ربما يأتيها الأمل من تقلبات صدفتهما معًا، عاجلاً أو أجلاً سيأتي اليوم الذي تجمعهما فيه الصدفة البحتة، أو صدفة مدبرة.

أما نضال فإنه يعيش عالمه الخاص الآن، ولاء حامل وينتظرون المولود بفارغ الصبر، ينتظرون هذا الزائر الجديد.

لقاء الأصدقاء ينقصه حسام كثيرًا، غيابه أحدث فراغًا كبيرًا، لا يلومون حسام على ذلك، ولكنه على يقين بأنه سيعود وستمضي

بهم الأيام معًا.

شادي الآن يملك الوقت والراحة الفكرية، ليصب كل ما يملك في فلك ألحانه وعزفه، فقد بات يكسب المال من عمله بالفرقة، وهو بأفضل حال يمكن أن تمر عليه باستثناء غصة حسام الغائب.

أحيانا ينتابني يقين بأن الأقدار تتعمد أن تقسو على البعض، كأنها تضع مصيدة أو شباكاً كشباك العنكبوت، ولكنها ليست عادلة، هي ظالمة بذلك، ليس لأنها اختارت ذلك الشخص لسبب ما أو لمزاجيتها، بل لأن أقدارنا تمس من حولنا فلا نستطيع أن ننأى بأنفسنا عنهم فيلحقهم الأذى أكبر من الشخص المستهدف، وهذا يؤرقني كثيراً.

هي تجلس في الصباح الباكر أمام أزهارها، تحدثها عن شوقها، وسرها الدفين، عن هذا الفرح الذي يعتريها، عن دقات تخالج قلبها، عن دموع على الوسادة، عن ابتسامة تغتال هذه الدموع كل مساء، إنها تغامر بمشاعرها نحو المجهول.

واليوم خلود جاءت إليها بأخبار جديدة، تبعثر هذا الصفو الجزئي الذي يجتاحها.

اسمعي، هل تذكرين حسام؟! ذاك الشاب الذي التقيته هنا، وأخبرتك عنه قليلاً

نعم أذكره نوعا ما، ما به؟

لقد تعرض لحادث قبل فترة، وفقد وعيه لبعض الوقت، ثم أفاق بأعجوبة، ولكنه فقد الذاكرة كلياً، يا له من مسكين، لقد تأثرت كثيراً عند سماعي الخبر.

كانت الكلمات على مسامعها تهوي بها إلى الهاوية، إلى العدم، دمعت عيناها برقة تشبه الموت، ذقنها الذي يرتجف، صمتت وأي انفجار داخلها، «رباه، أنجدني، أظن أنني لا أستطيع الاحتمال، قد أفارق الحياة في هذه اللحظة»، حتى الكلمات داخلها توقفت وساد الصمت كأنه الموت.

خلود بدأت تهزها من كتفها، ما بك؟ ما بك؟ تحدثي إلي، إنك تخفينني الآن.

خلود تعلم مقدار هشاشة مشاعرها وأنها تتأثر بأبسط الأشياء، نظرت إليها وقد أفاقت من هذه اللحظة المظلمة، والآن هو على ما يرام، أليس كذلك؟؟

نعم لقد تجاوز هذا، ولكنه ما يزال فاقدًا الذاكرة.

كل الحديث بعد ذلك كان يصدر من خلود ملّت، وخرجت من عندها.

بقيت وحيدة تلفها الصدمة، وشريط ذكريات بسيط يجمعها وحسام.

ولادة

كان الوقت قد قارب على منتصف الليل عندما رن جرس الهاتف، نظر إلى هاتفه متثاقلاً، إنه شادي، لم يرد على الاتصال، يعود الاتصال مجددًا ومجددًا، حسام يقربه شيء من الرهبة من الإجابة، فمنذ فترة يماطل بالتواصل مع أصدقائه، هو لا يعلم سبب ذلك، كما يبرر لنفسه، ولكنه أراد العزلة التامة عن الماضي أو أن عقله لم يعد على ما يرام، بات يفكر بمكنونات نفسه وتفاصيل عقله الباطن أكثر، كان أقرب إلى الهوس.

وبعد إلحاح الاتصال أجاب على هاتفه متذرعًا بالنوم، صوت شادي لم يكن على ما يرام.

حسام: أهلاً شادي يبدو أنى كنت أغفو قليلاً.

لا عليك ولم أكن أريد أن أزعجك ولكن يجب أن أحدثك قليلاً.

ماذا هناك؟

يجب أن تعود إلى الأردن بأسرع وقت ممكن، ولن نتحدث بالتفاصيل الطارئة إلا عند عودتك.

ماذا حصل؟ شادي أجبني.

لا عليك سنتحدث عندما تصل، أرجوك.

لن أعود بهذه الطريقة، عليك إخباري، بالله عليك أخبرني.

أمك بحالة مرضية سيئة وهي الآن بالمستشفى.

بدأ حسام يفحص هذه المحادثة بشكل دقيق وتوصل إلى أنهم يريدون عودته وما هذه إلا ذريعة لذلك.

تعلم أنني لن أعود مطلقاً.

لا أطلب منك العودة أكثر من يوم واحد فقط.

بالنهاية، رضخ حسام للأمر، حجز تذكرته وكانت طائرته ستقلع في الثامنة صباحاً، لم يوضب أمتعته، ولا حتى حقيبة صغيرة، سافر بما يحمله من ثياب فرحلته ليوم واحد فقط.

الأفكار تزدحم في رأسه عن هذا الأمر الذي جعلهم يطلبون عودته على وجه السرعة وبهذه الطريقة، يحاول أن يجد تفسيراً عله يستطيع النوم ولكن دون جدوى.

كان بانتظاره نضال وشادي عند وصوله إلى المطار، استجمع جأشه ليقول لهما بضع كلمات قبل أن يسألهما عن الأمر الذي حدث، وهما كذلك حاولا قدر المستطاع حبس دموعهما ولكنها كانت أقرب.

كان اللقاء شاقًا كثيرًا عليهما، لم يجيبا حسام بشيء من استفساراته حتى خرجوا إلى السيارة.

بدأ نضال بالحديث مع حسام بأن والدته بحالة مرضية سيئة نوعًا ما، شرد حسام ناظرًا إلى الخارج وقد تركزت عيناه على العدم، هل فارقت الحياة؟ نطق بذلك دون أن يزيح نظره أو أن يحرك شيئًا من حواسه.

أجابه شادي بحرقة وحشرجة نعم لقد فارقت الحياة، أمسك نضال يده وربت على كتفه، أعلم أن الأمر جلل ولكن هذه سنة الحياة ولم يتمالك شادي نفسه فاحتضنه وبدأ بالبكاء.

حسام لم يحرك ساكنًا، لم تدمع عيناه، لم يشح بنظره، كان كصخرة أو عدم. هذا ما أخافهما أكثر، حسام: هل أنت بخير؟ أجاب بدون تردد: نعم أنا بخير، ولكنه لم يكن كذلك، كان يفكر بكل شيء وباللا شيء، يفكر بأمه التي لا يعرفها، يفكر بهذا الجمود الذي يعتريه، يحدث نفسه: هل أكون متأثرًا إلى هذه الدرجة أو أنها اللامبالاة، أو تراني لا أشغل بالأمر بالا؟. لماذا لم أبكِ؟ أو ربما أنني لست حزينا حتى؟ لا، لا، لست كذلك ولكني لست على ما يرام، وماذا يتوجب علي أن أفعل الآن؟ لمن أقدم التعازي؟ أي ترهات أقول، أنا من سيتقبل التعازي، آه نسيت أن لي أخوة من طرف أمي، كيف سأواسيهم الآن؟ نطق دون وعي أرجوكم ماذا أفعل الآن؟ أنا أدور في دوامة لست افهم شيئا مطلقاً، قالها كأنه طفل يتوسل، نظر إليهم جميعا دون أن يضيف كلمة ثم اطرق بصره إلى الأرض، في هذه اللحظة أحس بالضعف، أراد أن يحمّل أحدًا عبأه، ولكنه كان يمقت ذلك في داخله، إلا أنه أراد ذلك وبشدة من يتسول لعوزه.

أصدقاؤه لم يعتادوه بهذه الحالة من قبل، كانت مراسم الدفن ستكون بعد صلاة الظهر، آخر مرة التقى حسام بوالدته كانت في المستشفى وقت حادثة حسام، لقد تجرعت مرارة حسام في تلك الحادثة، فلقد فارقها للمرة الثانية ودون أن يلتفت خلفه، كان شغلها الشاغل قبل وفاتها، كل يوم تبكيه بحرقة، تشتاقه ولا تجد من ريحه شيئًا، تخنقها ألف دمعة وعبرة، قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة أوصت بأن يحتضنها حسام علها تشفي شوقها بعد الموت.

أما حسام فقد ابتدأ جحيمه الآن مع كل دقيقة بدأ يفكر أكثر .

يا إلهي كيف ذلك، أمي لن أراها ثانيةً، ولست أذكرها، ولم أكن قربها، ربما كانت بحاجتي، كم كنت قاسيًا، غوغائيًا، نذلاً، منحط الشعور بما فعلت، لقد ذهبت.

هو لا يذكر الخلاف الذي فرقهما، ولكنه يذكر ما أخبره أصدقاؤه عن هذا الخلاف، وعن قراره بصدده، يخاطب نفسه: أنا أتحمل نتيجة كل ذلك، ولكن قد كان لي ولادة جديدة لماذا دفعني أصدقائي إلى هذا الهجر ثانيةً؟! هم يتحملون هذا الوزر أيضاً، ولكن أمي وأبي هما الأساس بهذا الوزر، ولكنها رحلت وتركتني أموت أضعافًا، كم أريد لهذا الزمن أن يعود أو أن أفقد ذاكرتي ثانيةً.

نضال محدثًا حسامًا: اسمع سيكون الوضع صعبًا عليك، أريد منك أن تتماسك، كما أنك يجب أن تتمالك نفسك لتستطيع أن تُهدأ من جزع إخوتك فهم صغار السن.

حسام لا ينطق بكلمة يسمع الحديث، ثم يواصل الحديث بداخله، أخوتي يا لهم من مساكين، كيف سأستطيع أن أخفف عنهم الآن، أظن أنني سأفقد وعيي عند رؤية أمي أو حتى عند رؤيتهم وهم يبكون وينتحبون.

بدأ الجمر داخل عقله بالتوهج يحدث احتراقًا داخليًا هو الأشد إيلامًا، أنين صادر عن كل ما فيه، كلما غامر بدخول تفاصيل خيالاته عن شعور أمه بلحظة الموت، ويؤجج جمره أنه كان الألم الأشد لأمه، يدخل بحالة إغماء يهزه نضال دون جدوى... لقد غاب عن الوعي تماماً.

خمسة أيام متواصلة في حالة الإغماء تلك، شادي ونضال في حالة رهبة شديدة فالأمر خطير، هما يلومان نفسيهما بأفظع أنواع السخط على النفس، ذلك بسبب إخبارهما حسام عن خلافه مع أبويه وقت فقدانه للذاكرة، يلقيان على كاهلهما فراقه الثاني لأهله ولكن هذا قراره، ووجب عليهما أن ينقلا له «حسام بكل حذافيره» كمن يترجم كتابا عليه أن ينأى عن رأيه أو وجهة نظره ويلتزم بالنص.

أشرقت الشمس وذلك وقتها بمجالسة زهورها تقريباً، كانت أكثر حماسة هذا الصباح وابتسامتها التي تولدت على محياها ليست من عدم ولكنها كانت على وقع لفتة من الذاكرة إلى هذه النبتة التي أخذها حسام، لم يكن يغيب عن خيالاتها مطلقاً، بل إنها ومنذ حديثها مع خلود رتبت حكاية جميلة داخلها، يقفز قلبها فرحا كلما جال في فكرها أن حسامًا لم يستطع أن يحيدها عن ذاكرته حتى بعد فقدانه لها، ثم تغشاها الكآبة على فراق ربما يدوم إلى الأبد، أو أن حكايتهما قد انتهت بهذا الحد.

ولكنها باتت تحمل قصة حبها الخاص، تحدث بها نفسها كل مساء وتستيقظ لتعاود سرد بعض المشاعر التي لم تقصصها على أزهارها من قبل.

تواظب على عملها دون انقطاع، لا تريد أن تفوت فرصة على حسام بأن يكون زائراً بأي وقت، لعلها باتت تحب حسام أكثر من أزهارها الآن، ولكنها – وبلا شك – تعيش بسعادة غامرة تنتظر إشفاقة قدر.

ما يدفعها إلى هذه المغامرة الساذجة هو يقينها بمقدرة الصدفة التي جمعتهما مرارًا أن تتكرر، ولكنها كانت تنتظر الصدفة هذه المرة كالذين يواظبون على شراء اليانصيب، عوزهم ما يدفعهم لذلك، وكذلك حالها الآن، وأظن أنها بقرارة نفسها راضية كل الرضى عن قرارها – ولو لم يحدث ما ترنو إليه بخيالاتها –.

في اليوم التالي أفاق حسام ولكن هذه المرة كان يحتفظ بذاكرته التي استطاع تجميعها منذ حادثته الأولى، وضعه الصحي ليس على ما يرام، وجهه هزيل وعيناه غائرة والسواد يلفهما كما يلف داخله، والمهدئات هي ما يسيطر عليه تماماً، (سيمكث وقتا في المستشفى حسب قول الأطباء).

الأيام والساعات شاقة على أصدقاء حسام ووالده الذي يتجرع المرارة مرارًا وتكرارًا، عذاب الانتظار والقلق، فالله وحده أعلم بما سيحدث لحسام بعد كل ذلك حتى بعد خروجه من المستشفى.

أي قدر أحمق هذا الذي يسير طريق حسام، كيف له ذلك إنه استبداد وحقد أحرقه وأدماه بكل ما فيه وبكل من حوله، أليس يحمل شيئاً من الرحمة، أيكون القدر هو شيء أم أنه لا شيء، أنكوّن نحن الأقدار أم أننا لعبتها.

وها هي عشرة أيام أخرى تنقضي ليبدأ حسام بالتعافي، أتساءل عن مقدار حبنا للحياة لنتشبث بها إلى هذا الحد، لقد أفاق وبدأ يرتب ما حدث على أنه ماضٍ ويحزم أمتعة المستقبل، ولكن في داخله شرارة من اللامبالاة تقدح بعقله الباطن، أكاد أجزم أنها من استطاعت أن

تهبه هذه الوقفة الآن، ولكنه رهن لهذه الشرارة على ما أعتقد هي شعلة الدفء وسط هذا الجليد الذي يحيط به.

خرج من المستشفى ولكنه لم يخرج من الدوامة، أراه ميتاً يمشي على قدمين، ليس هناك شيء يواسيه أو يزرع في نفسه ابتسامة أو حتى بصيص أمل.

قرر العودة إلى لبنان حاول أصدقاؤه منعه دون جدوى، ولكنه استطاع أن يتبادل مع والده بعض الأحاديث الباهتة التي يعلوها عنوان سابق باستمرار الجفاء والقطيعة.

دخل البيت الذي يشبه القبر وهذا ما يحتاجه الآن على وجه التحديد، اسودت كل مناحي الحياة بوجهه، لا يجد طريقا للخلاص ولا كيف يكون الخلاص هذه المرة، اتصل بجلال يخبره سبب غيابه تلك المدة دون التطرق إلى حالته المرضية مكتفيا بحالة وفاة والدته.

جلال لا يعلم بماذا يستطيع أن يخفف الم حسام وهو الذي يعلم جيدا مقدار الأسى الذي يخلفه الموت، ويعلم أنه أضعاف مضاعفه بحالة حسام، ولكنه بات على يقين بأن حسام قد ورث لعنة ما قد أطاحت به إلى هذه الدرجة.

لم يذهب إلى العمل كما لم يغادر البيت استأثر العيش كقطعة أثاث بدون أي أثر يذكر، حتى أفكاره تبلدت وتجمدت، زيارات جلال لم يكن لها التأثير الكافي ليخرج من هذا السبات، ترده اتصالات كثيرة من أصدقائه يجيب على القليل منها وكانت بلا جدوى.

أن يكون الإنسان فارغا تماماً هذا ينافي الفطرة البشرية، ويكاد

يكون منافياً لحدود تصورنا ولكن ذلك ما كان يمر به حسام فعلياً، لن يطول هذا الأمر فلعقلنا اللا واعي أو بالأحرى غريزة الحياة السطوة هذه المرة، ليس إلزامًا أن يكون إلى الأفضل، ولكن سيكون هناك استفاقة وكانت الاستفاقة بفكرة واحدة تجوب في نواحي عقله، تطوف بفكره المعدم، صاح مُرحباً بهذا الهاجس، نعم هذا هو الخلاص، انه ما يجب أن يحدث، فشرع مباشرةً يفكر بأفضل طريقة لهذا الموت، يطلق النار على نفسه، أو يلقي بنفسه من مكان مرتفع، أو يكون شيئاً مبتكرا، جل اهتمامه ألّا يشعر بالألم.

لم يستطيع أن يجد مبتغاه إلى الآن، حضر فناجان قهوة، حضرها على مهل وترو يغمره شيءٌ من السعادة، أضاف البن إلى الماء باردًا، وضعها على النار ينظر بطء غليانها، سكبها بفنجانه الأبيض الكبير، جلس يشعل سجائره التي يحدث نفسه بأنها ستكون الأخيرة.

لقد استعاد وعيه وإدراكه تماماً، حتى أنه الآن يملك شهيةً للأكل، يرسم بعقله مراسم دفنه، كيف سيتلقى كل من عرف بحياته نبأ وفاته، يرسم المشاهد برأسه واحداً تلو الآخر، كان مبتسماً ويشعر ببعض الدموع التي لم تغادر محاجرها، فكر بكل ذلك ولم يخطر له أن يفكر بنفسه بعد الموت، ما الذي ينتظره، لم يفكر بهذه الروح التي ستغادر هذا الجسد البالي الشاحب الفاني، سيغدو وحيدا، وهو إلى أي جزء سيؤول، إلى الروح أم إلى الجسد، لم يطرق أبواب الغيب ليسألها عن ماهيتنا ومن يكون هذا الوجود الذي يجول فينا كمحرك لنا، هذا الصوت الذي صاح بحسام أن ينهض من سباته إلى الموت،

أو هذا الغريب الذي يحاوره عن مكنوناته ولعل السلسلة لا تتوقف هنا.

توقف حسام عن الأكل عندما هدر هذا الصوت داخله، لماذا تأكل إن كنت تريد الموت، لماذا ترسم أحلاما ورديةً بتلذذك بمعاناة من حولك من حزنهم على فراقك، يا لك من تعس، إنك لا تجرؤ على إلحاق الأذى بنفسك، جل ما تستطيعه هو إلحاق الأذى بمن حولك، بمن يحبك أو من يسلم مقاليد نفسه لك، لقد وصلت بك الأنانية حد المرض، كم أنت كريه الطباع والنفس!

انتصب واقفا كأنه أراد أن يثبت لهذا الشيء بأنه ليس جباناً كما أنه جاد بالانتحار، توجه إلى درج المطبخ وأخرج سكينا، ثم نظر إلى الساعة كانت قد شارفت على الواحدة بعد منتصف الليل، تذكر أنه لم يكتب أي وصية أو أثر، وضع السكينة على الطاولة، ذهب ليحضر قلماً وورقة ويعود لمهمته، ولكن الصوت راح يقهقه باستفزاز، يا لك من جبان أخرق وممثل بارع أيضًا، إلى أين تذهب، تعلم أنك لن تفعلها ولكنك ستكتب الورقة لتكون ذكرى لنفسك على أنها تجربة حياة أو موت، كف عن هذا الهراء.

قطب وجه حسام وبات يحمل شروراً، قلبه ينبض بقوة كأنه أراد فعلها حقاً، وضع السكين على رقبته ثم رمى بها على الأرض، ركض مسرعاً لكي لا يسمح لهذا الصوت أن ينطق، أخرج مسدسا من درج مكتبه، ووضعه على رأسه بشكل أفقي، أراد للرصاصة أن تخترق رأسه إلى الجانب الآخر، كان مستعدا للموت الآن، نسيم

الصيف يداعب ستارة الشرفة تتطاير بسلاسة كأنها تحمل رائحة الموت، وها هو صوت خافت يهمس له افعلها تجد خلاصك ومنتهاك، ضغطة على الزناد ونكون قد انتهينا من هذه المهمة، لم يفكر بشيء الآن سوى بنبتته التي سبقته للموت، كان المشهد برأسه مريعا، يرى نفسه ملقى على الأرض ودماؤه اختلطت بأشلاء رأسه وعيناه مركزةٌ على نبتته لم تكن موجودة ببيته ولكنه يراها جيدا بكل تفاصيلها، حتى بذلك الغصن المتدلي من أعلاها، ثم دخل إلى حوار ذاكرته الصغيرة، صوت شادي عندما قص عليه ما حدث يوم وفاة أخته الصغيرة وكان ذلك سبب جفائه مع والديه.

أختك كانت تبلغ من العمر سبعة سنوات يومها، كان الخلاف يحتدم بين والديك على حق الحضانة للطفلة فكل منهما يريد الاحتفاظ بها متهما الآخر بالتقصير وعدم الأهلية للتربية أو الاحتفاظ بطفلتهما، الأب لا يريد لطفلته أن تعيش بكنف رجل آخر والأم تقول أنت متزوج ولن تكون زوجة الأب أمًا أبدا، منذ طلاقهما كانت تعيش مع حسام ولكنهما أرادا أن يغيرا الوضع، تعالت الأصوات واحتدم الحوار أكثر لم يلتفتا للطفلة الباكية.

حسام يتخيل موقفها بهذه اللحظة كيف كانت مرتجفة خائفة، وربما كانت بأمس الحاجة لوجوده، لطالما كان حضنها الدافئ ووطنها الصغير، ينظر إلى الحادثة وكأنها تحصل أمامه الآن بكل تفاصيلها، ضربة يد والده على الطاولة، والأم التي حطمت الزجاج على الأرض، والطفلة تنظر إلى أنحاء المكان وكأنه البحر الفسيح،

تبكي بلا صوت ودموعها تبلل رقبتها، خرجت من البيت تهتف بداخلها حسام أخي أين أنت، لم يلحظا خروجها حتى، راكضةً إلى الشارع لتصدمها سيارة وتلفظ أنفاسها الأخيرة على الفور.

دمعت عيون حسام كما دمعت روحه دون أن تختل يده التي تحمل المسدس بثبات وحزم، أجهش بالبكاء أكثر وأكثر، يحدث نفسه لماذا حدث كل ذلك من البداية، ليتني أستطيع إعادة الزمن، ماذا لو أننا نعيش جميعنا معًا، ماذا لو أنهما تركانا كما نحن لماذا دفعا بأختي الصغيرة إلى موتها، لكنت سعيدًا بوجودها قربي الآن.

هو لا يريد الموت حقا بقرارة نفسه، ولكنه لا يجد ما يغريه بالحياة ليس هناك من دافع للعيش، هو أقرب للموت أكثر، أُشفق عليه كثيراً، الآن هو مستسلم للقدر لطالما تحداه ونعته بكل الأوصاف، ووضع نفسه بذلك المكان الذي يتحدى فيه أقداره، ها هو يقف منصاعاً ألعوبةً بيد الأقدار تترنح به بين وجهين لعملة واحدةً، أحدها موت محقق، والآخر حياة بطعم الموت.

تطايرت الستارة أكثر معلنةً أن الوقت قد حان، هذا هو الوقت المحدد، رائحة الموت باتت أكثر وضوحاً، قد مات مسبقاً حين ماتت الأماني والذكريات، حين تناثر على جدار اليأس كل ما يملك من عواطف، لم يبق له سوى هذا الظلام الذي يجتاح أرجاءه.

ذلك الصوت الذي يحدثه قد صمت احتراما لقدسية الموت ووجلاً من هذا الزائر الثقيل، خيم السكون الذي يبعث البرودة التي بدأت تنساب في جسده، كأنه أوشك على الموت قبل أن تنطلق الرصاصة.

بهذه اللحظة رن جرس الهاتف، كاد يضغط على الزناد من شدة الرعب، راح قلبه يدق بشدة بعد أن خفتت دقاته وكأنه قد أفاق من سكونه، وأنفاسه تصاعدت معلنةً للجسد الخروج من حالة الموت تلك.

أخفض المسدس وهو مرتعب ينظر حوله وقلبه قد هوى من مقدار الخوف المحيط، كأن الموت قد حضر فعلياً، نظر إلى الستارة وقد هدأ روعها قليلاً، قدماه بالكاد تحملانه، جلس على الكرسي ثم نهض مسرعاً خارج هذه الغرفة المخيفة بكل تفاصيلها.

اختلطت مشاعره بين السعادة والحزن، الخوف والجنون، ولكن الأكيد أنه قد تذوق طعم الموت فعلاً، لم يحدث نفسه بشيء وبقيت تلك الأصوات صامتة من الذهول، رشف رشفةً من كأس الماء ثم شرب الكأس دفعةً واحدة.

خرج من البيت من غير وجهة، ابتهج عندما رأى الناس وأضواء المحال التجارية وسمع أصوات السيارات كأنه يراها لأول مرة، هي ولادة جديدة، بعض الأحيان نكون بحاجة اليأس ليتولد الأمل كحُلكة الليل ينشق منها النهار، ومن رحم الأسى تولد السعادة، ومن الخوف الأمان، هذا هو عالمنا المتناقض، عالم الأضداد.

ربما لا نكون جبابرة ولا نملك قدرات خارقة، ولسنا مخلدين، ولكننا نملك عقلاً مركبًا غايةً بالتعقيد والبساطة، ونملك المشاعر وهي الجمال بكل ما فيها من تناقضات، بذلك نحن أقوى وأجمل،

بذلك نحن بشر، لحظات تلتصق بجدار الزمن الأزلي تساوي هذا الجدار بأكمله، وأظن أن هذا سبب الحرب التي تشنها الأقدار علينا، ومع ذلك وبعد هذه الحرب مهما كانت النتائج نحن من ينتصر بالنهاية.